الصِّراط المُستقيم

تأليف

خادم علم الحديث الشريف

الشيخ عبد الله الهرريّ

المعروف بالحبشيّ غفر الله له ولوالديه

المتوفّى سنة ١٤٢٩هـ

شركة دار المشاريع

الطبعة الثامنة عشرة

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠ر

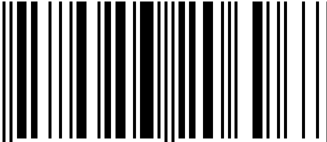
شركة دار المشاريع

بيروت ـ لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن
خلدون، بناية الإخلاص
تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤(١ ٩٦١)٠٠
صندوق بريد: ٥٢٨٣ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان



ISBN 978-9953-20-696-7



9 789953 206967

email: dar.nashr@gmail.com
www.dmcpublisher.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير علمي مفصل عن كتابي الشيخ عبد الله الهرري ((ح)) المعروف بالحبشي
وعنوانهما ((الصراط المستقيم)) و ((بغية الطالب لمعرفة العلم الديني الواجب))

أما الكتاب الأول وهو ((الصراط المستقيم)) فهو يقع في مائة وثمان وعشرين صفحة
بالفهرس طبع دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان الطبعة
العاشرة سنة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م وقد رتبه على مقدمة وعدة فصول وخاتمة
أما المقدمة: فقد بين فيها أعظم حقوق الله تعالى على عباده وهو توحيده تعالى وعدم الشرك
به وبين أن الشرك هو أكبر الذنوب وأنه لا يغفره الله تعالى، ثم بين معنى الشهادتين، فمعنى
شهادة أن لا إله إلا الله هي أعترف بلساني وأعتقد بقلبي أن المعبود بحق هو الله، ومعنى شهادة
أن محمدا رسول الله، أي أعترف بلساني وأعتقد بقلبي أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله
إلى كافة العالمين من إنس وجن وهو صادق في كل ما يبلغه عن الله تعالى، وبين أن اعتقاد لا إله إلا الله
فقط لا يكفي ما لم يقترن باعتقاد أن محمدا رسول الله قال تعالى ((قل أطيعوا الله والرسول فإن
تولوا فإن الله لا يحب الكافرين)) ثم بين الفرض على كل مكلف أن ينطق بالشهادتين ولو مرة واحدة
في عمره، ثم بين أن لا دين صحيح عند الله تعالى إلا الإسلام لقوله تعالى ((إن الدين عند الله الإسلام))
ولقوله تعالى ((ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)) ثم بين أن الإسلام
الذي كان عليه الرسل قبل نبينا صلى الله عليه وسلم هو الاستسلام لله تعالى، والانقياد له على شرائع رسلهم
ثم بين أن هناك من يدعي الإسلام لفظا ولكنهم في باطنهم كافرون، كالذين يعتقدون ألوهية علي بن أبي طالب
أو الخضر، أو الحاكم بأمر الله ثم بين أن من ارتكب ذنبا دون الشرك فمآله الجنة، ثم بين أن الشرك
ثلاثة أقسام اعتقادي وفعلي ولفظي، فالاعتقادي كأن ينفي صفة من صفاته تعالى الواجبة له
إجماعا، فهو كافر، والكفر الفعلي هو إلقاء المصحف في القاذورات، والكفر القولي كأن يقول إن لله
تعالى زوجة أو ولدا أو بنتا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ثم بين أن من قال لمسلم يا كافر لا يكفر إلا إن قصد
فعلا تكفيره بما ليس فيه، وبين أن سوء الأدب مع الرسول كفر كالاستهزاء بحال من أحواله أو
بفعل من أفعاله على سبيل التنقيص له صلى الله عليه وسلم ثم بين الاستثناءات من الكفر اللفظي كسبق
اللسان، أو حكاية الكفر للغير، ولا يكفر المتأول تأويلا جائزا، أما الذي يؤول تأويلا غير جائز فهو كافر
والقائلون بقدم العالم كفار كابن سينا والفارابي وقد كفرهم حجة الإسلام الغزالي، وبين أن الزركشي
نقل الإجماع على تكفيرهم، وبين أن الحافظ المجتهد ابن جرير الطبري قطع بتكفير الخوارج، ثم بين
أن من أحكام الردة أن ينفسخ نكاح زوجته، فتكون العلاقة بينهما بعد كفره علاقة غير شرعية
ثم بين أن التعطيل وهو نفي وجود الله تعالى أشنع أنواع الكفر، وبين أن من اعتقد أن الصلاة واجبة
ثم لا يصلي كسلا فهو مؤمن عاص، ثم بين أن العالم كله مخلوق حادث كما جاء في كتاب بدء الخلق
من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قوله عليه السلام ((كان الله ولم يكن شيء غيره))
ثم بين أن الجنة والنار مخلوقتان، فلهما بداية، ولكنهما باقيتان إلى ما لا نهاية بإبقاء الله تعالى لهما
ثم قال إن أبا حنيفة يكفر من يقول بحدوث صفات الله تعالى))



أ.د/ [illegible]

تقريظ كليّة أصول الدين في جامعة الأزهر. القاهرة

ثم عقد فصلاً لتنزيه الله عن المكان واستدل بقوله تعالى «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» ثم نقل عن البيهقي أنه استشهد على نفي المكان عن الله تعالى بقول النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء» وإذا لم يكن فوقه شىء ولا دونه شىء لم يكن في مكان، ثم رد على من يقول إنه في السماء لأننا نرفع الأيدي في الدعاء إلى السماء بقوله إننا نرفع الأيدي إلى السماء لأنها مهبط الرحمات والبركات وليس لأن الله موجود بذاته في السماء، ثم بين صفات الله تعالى الثلاث عشرة عند الأشاعرة، وذكر أدلتها النقلية والعقلية ثم بين أن من يعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم جزء من الله تعالى فهو كافر قطعاً، كالذي يعتقد في المسيح أنه جزء من الله، ثم بين الآيات المحكمات والمتشابهات، فذكر أن الآيات المحكمات هي ما لا يحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهاً واحداً، أو عرف بوضوح المعنى المراد منه كقوله تعالى «ولم يكن له كفواً أحد» والآيات المتشابهة هي ما لم تتضح دلالتها، أو هي ما تحتمل أوجهاً عديدة، وتحتاج إلى النظر لحملها على الوجه المطابق كقوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» وذكر أن من معنى وما يعلم تأويله إلا الله، إنما هو وقت قيام الساعة، وذكر أن من يقول في كتاب الله تعالى ما لا سبيل إلى معرفته لمخلوق، فهذا من أعظم القدح في النبوات، ثم بين أن الجهل بالصفات يؤدي إلى الجهل بالموصوف، وذكر أن من يمنع عن التأويل أصلاً فقد أبطل الشريعة والعلوم وذكر أن السلف يؤولون آيات الصفات تأويلاً إجمالياً بالإيمان بها واعتقاد أن لها معنى يليق بجلال الله وعظمته بلا تعيين، لقوله تعالى «ليس كمثله شىء»، وذكر أنه صح التأويل التفصيلي عن أحمد بن حنبل وهو من السلف فقد ثبت عنه أنه قال في قوله تعالى «وجاء ربك» أي جاءت قدرته والثاني مسلك الخلف وهم يؤولونها تفصيلاً بتعيين معان لها مما تقتضيه لغة العرب، ولا يحملونها على ظواهرها كالسلف ويقول: ولا بأس بسلوكه، ولا سيما عند الخوف من تزلزل العقيدة حفظاً من التشبيه، ثم أخذ في تأويل المتشابهات كما ورد في مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري فقال في تأويل قوله تعالى «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي» في سورة ص فيجوز أن المراد باليدين العناية، وهكذا ذكر في آية الاستواء فقال فتحمل آية الاستواء على القهر والغلبة كما قال الشاعر: قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق أما من يحمل الاستواء على الاستقرار والجلوس فيكون مخطئاً لأنه يكفر إذا اعتقد الجسمية في حق الله تعالى وحمل المعية في قوله تعالى «وهو معكم أينما كنتم» على العلم، وقال إن من يسمون أنفسهم بالسلف يؤولون المعية في هذه الآية وغيرها بالعلم، فكيف يؤولون في هذه الآية ولا يؤولون في قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» إن هذا يعتبر منهم تعنتاً وتحكماً فمن يؤول في آية لا بد أن يؤول في كل الآيات المتشابهات، إذ لا يمنع التأويل في الكل، ثم تكلم عن معنى القدر والإيمان به، فقال إن الله قدر الأشياء، ودبرها على وجه مطابق لعلمه الأزلي ومشيئته الأزلية، فيوجدها في الوقت الذي علم أنها تكون فيه، والله تعالى أراد الخير والشر والطاعة والمعصية، فكل شىء في الكون [illegible] وتقديره



أ.د. محيي الدين الصافي

تقريظ كليّة أصول الدين في جامعة الأزهر. القاهرة

وذكر أن الإيمان بهذا واجب على كل مسلم، والله تعالى أخبرنا أن قسماً من خلقه مصيرهم النار بأعمالهم التي يعملونها باختيارهم، وكان تعالى عالماً بعلمه الأزلي أنهم لا يؤمنون، ثم ذكر الدليل العقلي على خلق قول المعتزلة بأن العبد يخلق أفعال نفسه، وبيان الدليل على ذلك أن قدرة الله عامة وتستوي إلى الممكنات نسبة واحدة، فلو كانت صفاته هذه ببعض الممكنات دون بعض للزم اتصافه تعالى بنقيض تلك الصفات من الجهل والعجز، وذلك نقص والنقص عليه محال، فلو أراد الله إيجاد حادث وأراد العبد خلافه ونفذ مراد العبد دون مراد الله للزم إلى المفروض في إثبات الألوهية، وتعدد الآلهة محال بالبرهان، فما أدى إلى المحال محال، وهكذا رد على المعتزلة برد أهل السنة الأشعرية والماتريدية، أشعرية حقيقة، ثم ذكر أن إثبات الأسباب العادية لا تؤثر على الحقيقة، وإنما المؤثر الحقيقي هو الله تعالى، وهكذا مذهب الأشاعرة على الحقيقة، فالغزالي يقول أن السكين لا تقطع إنما الذي يقطع هو الله عند ملاقاة السكين جسماً قابلاً للقطع، وهكذا النار وغيرها من الأسباب العادية، ثم تحدث عن النبوة وحال إنها من الجائز في حق الله تعالى، فالله تعالى بعث الأنبياء رحمة للعباد، إذ ليس في العقل ما يستغني به عنهم، فالعقل لا يعرف ما ينجي عند الله من الأقوال والأفعال، وهي لا تعرف إلا من النبي، فبعث الأنبياء مصلحة ضرورية للعالم، ثم الفرق بين الرسول والنبي، وذكر ما يجب للأنبياء من الصفات، وهي الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، ثم ذكر المعجزة، وهي أمر خارق للعادة يظهر على يدي من يدعي النبوة في دعواه، ويقع على وفق مراده، مع عجز جميع الخلق عن معارضته والإتيان بمثله، وهي غير السحر لأن السحر يعارض ويمكنه أن يتعلم، أما المعجزة فلا، ثم ذكر بعض المعجزات التي وقعت للأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم كعدم احتراق النار لإبراهيم عليه السلام، وكانقلاب عصا موسى حية تسعى، ثم ذكر معجزات نبينا التي وردت إلينا بالتواتر، كحنين الجذع إليه، وتسبيح الحصى بين يديه، والقرآن الكريم، ثم ذكر معجزة الإسراء والمعراج، فقال إن الإسراء ثبت بالقرآن الكريم فيجب الإيمان به ومنكره كافر، أما المعراج فقد ثبت بالأحاديث النبوية، وأما القرآن فلم ينص عليه نصاً صريحاً لا يحتمل تأويلاً لكنه ورد فيه ما يكاد يكون نصاً صريحاً وهو قوله تعالى «ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى» ثم ذكر وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول، ثم ذكر الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله، وأنه واجب، وذكر الأدلة على ذلك من القرآن والسنة، وذكر أن من ينكر عذاب القبر فهو كافر لقول الله تعالى «النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» سورة غافر ثم ذكر الحساب والميزان، والثواب والعقاب، والصراط والحوض والجنة، ثم ذكر أن الشفاعة حق وهي ثابتة بالقرآن والسنة، ثم ذكر البدعة، ثم ذكر أن التوسل بالأنبياء والأولياء جائز، وأنه ليس شركاً ثم ذكر التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم، ثم ذكر الاجتهاد والتقليد، ثم ختم الكتاب، وهو كتاب جيد يوافق العقيدة الأشعرية تماماً [illegible] إليها وينشر بين الناس.

أ. د. محيي الرحمن [illegible]



تقريظ كليّة أصول الدين في جامعة الأزهر. القاهرة

أما الكتاب الثاني. وهو «بغية الطالب لمعرفة العلم الديني الواجب» فهو يقع في أربعمائة وثلاث وستين صفحة من طبع دار المشاريع للطبع والنشر بيروت لبنان ١٤١٦هـ الموافق ١٩٩٦م الطبعة الثالثة. وقد رتبه على مقدمة وعدة فصول وخاتمة

وقد ذكر في القسم الأول من الكتاب ما يجب على المسلم اعتقاده والإيمان به، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله. وذكر ذلك مختصرا من الكتاب الأول وهو الصراط المستقيم، وذكر الكفر وأقسامه، ثم ذكر أن المرتد يقتل بعد الاستتابة، ثم شرع في ركن الإسلام بعد أن ذكر ركن الإيمان، فذكر أن المسلم لا بد أن يتلفظ بالشهادتين بالإيمان لكي يسمى مسلما، ثم ذكر أركان الإسلام بعد الشهادتين بالتفصيل وهي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وذكر كل ذلك مفصلا، فذكر أركان الصلاة وشروط صحتها وسننها وغير ذلك، وكذلك فعل مع إيتاء الزكاة فذكر شروطها ووجوبها، وبين مقدار النصاب فيها من النعم والحبوب والتمر وغير ذلك كالنقدين، وبين ركن الصوم فذكر شروط وجوبه والدليل عليه، ومبطلات الصوم كما ذكرت في كتب الفقه، وبين ركن الحج وشروط وجوبه، وبين أركانه، ومبطلات الحج، ثم بين المعاملات من البيع والشراء، والنكاح وغير ذلك مما ذكر في كتب الفقه، وبين أيضا الواجبات القلبية ليتحد الظاهر مع الباطن، فيكون العمل مقبولا عند الله تعالى.

وبعد فإن ما في هذين الكتابين من العلم يتوافق تماما مع عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري إمام أهل السنة والجماعة، ولا يتناقض مع شيء منها، بل هو يشرحها شرحا يقربها من العقول والقلوب، ويدعو الناس إلى اعتقادها لأنها عقيدة أهل السنة والجماعة التي بها النجاة يوم القيامة، ومؤلفها الشيخ عبد الله الهرري يمتاز بالدقة، والرجوع إلى المراجع الأصيلة في العقيدة والشريعة ويمتاز بالإخلاص لله تعالى في القول والعمل، والدعوة إلى الله تعالى بجهد واجتهاد. والله تعالى نسأل أن يوفقه لخدمة العلم والدين.

أعضاء اللجنة من أساتذة كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

الأستاذ الدكتور محيي الدين أحمد الصافي الأستاذ بقسم العقيدة وعميد كلية أصول الدين سابقا: محيي الدين الصافي

الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد نجم الأستاذ بقسم الحديث ووكيل الكلية سابقا: عبد المنعم السيد نجم

الأستاذ الدكتور محمد عمر محمد حسين الأستاذ بقسم العقيدة بالكلية: محمد عمر حسين

تحريرا في ١٧ / ٢ / ٢٠٠٢م

التوقيعات لحضرات أصحاب الفضيلة خاصة بالسادة الأساتذة المشار إليهم بعاليه أساتذة بالكلية

وهم: ١- أ.د محيي الدين أحمد الصافي ٢- أ.د عبد المنعم السيد نجم ٣- أ.د محمد عمر محمد حسين

يعتمد،،

مدير شؤون الكلية

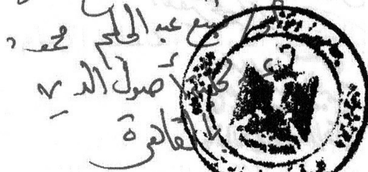
تقريظ كليّة أصول الدين في جامعة الأزهر. القاهرة

كتاب الصراط المستقيم
لفضيلة الإمام المحدث الجليل
عبدالله الهرري
المعروف بالحبشي
هذا الكتاب لا مانع من نشره وتداوله
بين الناس وتعلم ما فيه من علم جيد
وهو يحمل العقيدة الأشعرية وهي
عقيدة أهل السنة والجماعة

أ.د/ طه الدسوقي حبيشي
قسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين بالقاهرة

أ.د/ طه الدسوقي حبيشي

هذا الكتاب قيم ولا مانع من نشره



الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ

تقريظ الأستاذ الدكتور طه الدسوقي حبيشي - جامعة الأزهر

Phone : ~~24797~~ Phone No : [316090 317090]

PRINCIPAL
JAMIA NAIMIA
DEWAN BAZAR,
MORADABAD U.P

صدر مدرس
دار العلوم جامعہ نعیمیہ،
دیوان بازار، مراد آباد یوپی ۲۴۴۰۰۱



DATED.................................

قد نار قلبي وانشرح صدري واستضاء فؤادي بخدمة الملة المليئة من العلامة المحدث الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي. وطالعت كتابه المستطاب الصراط المستقيم بمقامات عديدة فوجدته ذاهبًا للأسلاف وأدعو من الله عز وجل أن يجعل مساعيه مشكورة وأن يستفيد من بركاته الخواص والعوام من أهل الله

آمين والسلام

الفقير محمد ايوب

صدر مدرس
جامعہ نعیمیہ
بازار دیوان - مراد آباد

تقريظ دار العلوم في الجامعة النعيمية - الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى ءاله وأصحابه الطيبين.

وبعد فإن العلم بالله تعالى وصفاته أجلّ العلوم وأعلاها وأوجبها وأولاها، ويسمى علم الأصول وعلم التوحيد وعلم العقيدة، قال تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[1]، ويسمى هذا العلم أيضًا مع أدلته العقلية والنقلية من الكتاب والسنة علم الكلام.

وقد اهتم العلماء الأفاضل بهذا العلم اهتمامًا كبيرًا، قال الزركشي في تشنيف المسامع «إن الأئمة انتدبوا للرد على أهل البدع والضلال وقد صنَّف الشافعي كتاب «القياس» رد فيه على من قال بقِدم العالم من الملحدين وكتاب «الرد على البراهمة» وغير ذلك وأبو حنيفة كتاب «الفقه الأكبر» وكتاب «العالم والمتعلم» رد فيه على المخالفين وكذلك مالك سئل عن مسائل هذا العلم فأجاب عنها بالطريق القويم وكذلك الإمام أحمد» اهـ

ومن جملة المعتنين بهذا العلم تأليفًا وتدريسًا الإمام المحدث الفقيه الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي فألف عدة كتب

---

(١) سورة محمد/الآية (١٩).

منها كتاب «الصراط المستقيم» وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وقد لقي إقبالًا بالغًا من أهل العلم والمعرفة وخصوصًا من طلبة العلم الشرعي فلذلك يسرنا أن نقدم الطبعة السادسة عشرة من هذا الكتاب سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن ينفع به إنه على كل شىء قدير.

نبذة مختصرة
في ترجمة شيخنا الهرري

- اسمه وكنيته وشهرته:

هو العالِم الجليل قدوة المحقّقين وعمدة المدقّقين صدر العلماء العاملين الإمام المحدّث التقي الزاهد والفاضل العابد صاحب المواهب الجليلة الشيخ أبو عبد الرَّحمـٰن عبد الله بن محمَّد بن يوسف بن عبد الله بن جامع الشَّيبي[١] العبدري[٢] القرشي نسبًا الهرري[٣] موطنًا المعروف بالحبشي.

- مولده ونشأته:

وُلِدَ في مدينة هرر حوالي سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠ر، ونشأ في بيتٍ متواضع محبًّا للعِلم ولأهله فحفظ القرءان الكريم استظهارًا وترتيلًا وإتقانًا وهو قريب العاشرة من عمره في أحد كتاتيب باب السلام في هرر، وأقرأه والده كتاب «المقدمة الحضرمية في فقه السادة الشافعية» وكتاب «المختصر الصغير فيما لا بد لكل مسلم من معرفته» وهو كتاب مشهور في بلاده وكلاهما للشيخ عبد الله بافضل الحضرمي الشافعي، ثم حُببَ إليه العلم فأخذ عن بعض علماء بلده وما جاورها، وعكف على الاغتراف من بحور العلم

---

(١) بنو شيبة بطن من عبد الدار من قريش وهم حجبة الكعبة إلى الآن، انتهت إليهم من قبل جدهم عبد الدار حيث ابتاع أبوه قصيّ مفاتيح الكعبة من أبي غبشان الخزاعي، وقد جعلها النبي ﷺ في عقبهم. انظر سبائك الذهب (ص/٦٨).

(٢) بنو عبد الدار بطن من قصي بن كلاب جدّ النبي ﷺ الرابع. انظر سبائك الذهب (ص/٦٨).

(٣) تقع مدينة هرر في شرق إفريقيا ضمن جمهورية أثيوبيا.

فحفظ عددًا من المتون في مختلف العلوم الشرعية.

- **رحلاته:**

لم يكتفِ رضي الله عنه بعلماء بلدته وما جاورها بل جال في أنحاء الحبشة ودخل أطراف الصومال مثل هرگيسا لطلب العِلم وسماعه من أهله وله في ذلك رحلات عديدة لاقى فيها المشاق والمصاعب، غير أنه كان لا يأبه لها بل كلما سمع بعالِم شدَّ رحاله إليه ليستفيد منه وهذه عادة السلف الصالح، وساعده ذكاؤه وحافظته العجيبة على التعمّق في الفقه الشافعي وأصوله ومعرفة وجوه الخلاف فيه، وكذا الشأن في الفقه المالكي والحنفي والحنبلي، ثم أَوْلى علم الحديث اهتمامه رواية ودِراية فحفظ الكتب الستة وغيرها بأسانيدها وأجيز بالفتوى ورواية الحديث وهو دون الثامنة عشرة حتى صار يُشار إليه بالأيدي والبنان ويُقصد وتشدُّ الرحال إليه من أقطار الحبشة والصومال حتى صار على الحقيقة مفتيًا لبلده هرر وما جاورها.

ثم خرج من بلده إلى الحجاز بعد أن كثر تقتيل العلماء مرات عديدة ءاخرها سنة **١٣٧١هـ - ١٩٥١** فتعرّف على عدد من علمائها كالشيخ العالِم السيّد علوي المالكي والشيخ السيد أمين الكتبي والشيخ محمد ياسين الفاداني والشيخ حسن مشاط وغيرهم وربطته بهم صداقة وطيدة، وحضر على الشيخ محمّد العربي التبّان، واتصل بالشيخ عبد الغفور العباسي المدني النقشبندي فأخذ منه الطريقة النقشبنديّة كما سيأتي.

ورحل بعدها إلى المدينة المنوّرة واتصل بعدد من علمائها منهم الشيخ المحدث محمّد علي أعظم الصديقي البكري الهندي الأصل ثم المدني الحنفي وأجازه، واجتمع بالشيخ المحدث إبراهيم الخُتَني تلميذ المحدث عبد القادر شلبي الطرابلسي ثم المدني

والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي الهندي ثم المدني والشيخ المحدث محمد يوسف البنُّوري وحصلت بينهم صداقة ومودة، ثم لازم مكتبة عارف حكمت والمكتبة المحمودية مطالعًا منقبًا بين الأسفار الخطيَّة مغترفًا من مناهلها فبقي في المدينة مجاورًا مدة من الزمن.

ثم رحل إلى بيت المقدس في أواخر سنة **١٣٧١**هـ - **١٩٥٢**ر مشيًا على الأقدام ومنه إلى الخليل ثم توجَّه إلى دمشق فاستقبله أهلها بالترحاب لا سيما بعد وفاة محدّثها الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله، ثم سكن في جامع القطاط في محلة القيمرية وأخذ صيته في الانتشار فتردّد عليه مشايخ الشام وطلبتها وتعرَّف على علمائها واستفادوا منه وشهدوا له بالفضل وأقرُّوا بعلمه واشتهر في الديار الشامية «بخليفة الشيخ بدر الدين الحسني» و«بمحدّث الديار الشاميّة»، ثم تنقل في بلاد الشام بين دمشق وبيروت وحمص وحماه وحلب وغيرها من المدن السورية واللبنانية إلى أن استقر ءاخرًا في بيروت.

- **مشايخه:**

١ - هرر وضواحيها:

أخذ عن والده محمد بن يوسف كما تقدَّم، وعن كبير[1] علي شريف علم التوحيد، وقرأ عليه القرءان الكريم تجويدًا وترتيلًا وحفظه وهو دون العاشرة، وعن العالم النحرير الشيخ الولي محمد ابن عبد السلام الهرري الفقه الشافعي والنحو، وقرأ على الشيخ محمد بن عمر جامع الهرري علم التوحيد والفقه الشافعي والنحو،

(١) معناها في بلاد الحبشة «الشيخ العالم».

وقرأ على الشيخ إبراهيم بن أبي الغيث الهرري كتاب «عمدة السالك وعدة الناسك» لأحمد بن النقيب الشافعي، وعلى الشيخ الصالح أحمد الضرير الملقب بالبصير في قريته كرُّو كتاب «الفواكه الجنية على متممة الآجرومية» للفاكهي وشرح التصريف العزي للتفتازاني وألفية ابن مالك و«الجوهر المكنون في الثلاثة متون» في البلاغة للأخضري، وكتاب «تلخيص المفتاح» في البلاغة للقزويني.

٢ - خارج هرر:

ارتحل إلى غرب الحبشة فقرأ في جِمَّه على الشيخ بشرى گوراگي علم العروض والقوافي، والشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله الحبشي المعروف بالمصري جميع صحيح مسلم وسنن النسائي و«تدريب الراوي شرح تقريب النووي» للحافظ السيوطي وبعضًا من صحيح ابن حبان والسنن الكبرى للبيهقي ومسند الإمام أحمد وسمع منه المسلسل بالأولية وغيره ثم أجازه بسائر مروياته.

وقرأ في ناحية جِمَّه على الشيخ يونس گوراگي «فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب» للشيخ زكريا الأنصاري.

وأخذ عن الشيخ العلامة النحوي اللغوي محمد شريف الجِمي الشهير بشيخ شِيرو في ناحية جِمَّه في قرية شِيرو شرح ملحة الإعراب وشرح ألفية ابن مالك لابن عقيل وشرح شافية ابن الحاجب في الصرف للأسترابادي وكتاب «فتح الجواد في شرح الإرشاد لابن المقري» لابن حجر الهيتمي وحضر عليه أيضًا في التفسير.

وقرأ على الشيخ أحمد دگو في چرين ناحية جِمَّه «جمع الجوامع في أصول الفقه» للسبكي بشرح المحلي، وأدرك الشيخ إبراهيم القَتْبَاري في ءاخر عمره لما سكن جِمَّه وقرأ عليه «تحفة الطلاب

بشرح متن تحرير تنقيح اللباب» للشيخ زكريا الأنصاري.

واجتمع بالشيخ الفقيه الأديب الصوفي الزاهد عمر بن علي البَلْبِلَّيتي، الغَلَمْسي فقرأ عليه في علم الميقات والفلك.

ثم ارتحل إلى شمالي الحبشة مشيًا على الأقدام فدخل رايَّه وهي تبعد عن هرر نحو ألف كيلومتر فقرأ على مفتي الحبشة الشيخ محمد سراج الجبرتي سنن أبي داود وابن ماجه وشرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر للحافظ ابن حجر العسقلاني وسمع منه المسلسل بالأولية وغيره ثم أجازه بسائر مروياته، ودخل قرية كَدَّو مرتين فقرأ على الشيخ الصالح المقرئ المحدث أبي هدية الحاج كبير أحمد بن عبد الرحمٰن إدريس الدَّاوي الكدّي الحسني شيخ القراء في المسجد الحرام بمكة - وكان يسميه أحمد عبد المطلب - صحيح البخاري وسنن الترمذي وأجازه وقرأ عليه القرءان من طريق الشاطبية، ثم دخل أديس أبابا فقرأ على الشيخ داود الجبرتي الهاشمي المقرئ شرح الجزرية لزكريا الأنصاري وقرأ عليه القرءان بقراءتي نافع المدني وأبي عمرو البصري وبرواية حفص عن عاصم، وقرأ عليه كتاب «الدرة المضية في القراءات الثلاث المتممة للعشر» لابن الجزري.

٣ - خارج الحبشة:

اجتمع في المدينة بالشيخ محمد علي أعظم حسين الصديقي البكري الهندي الأصل ثم المدني الحنفي فسمع منه المسلسل بالأولية وغيره من المسلسلات وقرأ عليه «الأربعون العجلونية» وأجازه، وحضر على الشيخ محمد العربي التبَّان المكي المالكي بعض الدروس في التفسير والحديث في المسجد الحرام عند باب الزيارة. وأجازه المسند الأصولي علم الدين أبو الفيض محمد

ياسين الفاداني المكي بسائر مروياته.

ثم دخل دمشق فقرأ على الشيخ المقرئ محمود فايز الديرعطاني نزيل دمشق وجامع القراءات السبع أقل من ختمة برواية حفص على وجه قصر المنفصل في المدرسة الكاملية بدمشق، وأجازه الشيخ محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكَتَّاني نزيل دمشق وقتها بسائر مروياته، وقرأ على الشيخ محمد العربي العزوزي الفاسي نزيل بيروت الموطأ وسمع من لفظه الأربعين العجلونية وبعضًا من مسند أحمد والمسلسل بالأولية وأجازه، وتردد على الشيخ محمد توفيق الهِبري البيروتي وسمع من لفظه بعضًا من الأربعين العجلونية وأجازه بها.

- **تدريسه:**

شرع رضي الله عنه يُلقي الدروس مبكرًا على الطلاب الذين ربما كانوا أكبر منه سنًّا فجمع بين التعلُّم والتعليم في ءان واحد، وانفرد في أرجاء الحبشة والصومال بتفوّقه على أقرانه في معرفة تراجم رجال الحديث وطبقاتهم وحفظ المتون والتبحّر في علوم السنة واللغة والتفسير والفرائض وغير ذلك، حتى إنه لم يترك علمًا من العلوم الإسلامية المعروفة إلا درسه وله فيه باعٌ، وربما تكلّم في علم فيظن سامعُه أنه اقتصر عليه في الإحكام وكذا سائر العلوم على أنه إذا حُدّث بما يعرف أنصت إنصات المستفيد، فهو كما قال الشاعر: [الكامل]

وتراهُ يُصغي للحديثِ بِسَمْعِهِ وبقَلبِهِ ولعلهُ أدرَى بهِ

- **الثناء عليه:**

أثنى عليه العديد من علماء وفقهاء الشام منهم الشيخ علاء الدين وأخوه عزّ الدين الخزنوي الشافعيان النقشبنديان من الجزيرة شمالي

سوريا والشيخ عبد الرزَّاق الحلبي إمام ومدير المسجد الأموي بدمشق والشيخ أبو سليمان سهيل الزَّبيبي والشيخ مُلَّا رمضان البوطي والشيخ أبو اليُسر عابدين مفتي سوريا والشيخ عبد الكريم الرفاعي والشيخ سعيد طَنَاطِرَة الدمشقي والشيخ أحمد الحُصَري شيخ معرّة النعمان ومدير معهدها الشرعي والشيخ عبد الله سراج الحلبي والشيخ محمد مراد الحلبي والشيخ عبد العزيز عيون السود شيخ قرَّاء حمص والشيخ عبد السلام أبو السعود الحمصي والشيخ فايز الدَّيرعطاني نزيل دمشق وجامع القراءات السبع فيها والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت الدمشقي والدكتور أحمد الحلواني شيخ القرَّاء في سوريا والشيخ أحمد الحارون الدمشقي الولي الصالح والشيخ طاهر الكيالي الحمصي والشيخ صلاح كِيوَان الدمشقي والشيخ عباس والشيخ حمدي الجويجاتي الدمشقيان ومفتي محافظة إدلب الشيخ محمد ثابت الكيالي ومفتي الرقة الشيخ محمد السيد أحمد والشيخ هاشم المجذوب الدمشقي والشيخ الفرضي أبو عمر القصيباني العاتكي الدمشقي الشافعي والشيخ نوح القضاه من الأردن وغيرهم خلق كثير.

وكذلك أثنى عليه الشيخ عثمان سراج الدين سليل الشيخ علاء الدين شيخ النقشبندية في وقته وقد حصلت بينهما مراسلات علمية وأخوية، والشيخ عبد الكريم محمد البَيَّاري المدرّس في جامع الكيلانية ببغداد والشيخ محمد زاهد الإِسلامبولي والشيخ محمود أفندي الحنفي من مشاهير مشايخ الأتراك العاملين الآن بتلك الديار والشيخان عبد الله وعبد العزيز الغماري محدّثا الديار المغربية والشيخ محمد ياسين الفاداني المكي شيخ الحديث والإسناد بدار العلوم الدينية بمكة المكرمة والشيخ محمود طاش مفتي إزمير والشيخ المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي والشيخ محمد زكريا

الكاندهلوي الهنديان والمحدث إبراهيم الخُتني وغيرهم خلق كثير.

أخذ الإجازة بالطريقة الرفاعيّة من الشيخ محمد علي الحريري الدمشقي، والخلافة من الشيخ عبد الرَّحمٰن السبسبي الحموي والشيخ طاهر الكيالي الحمصي، والإجازة بالطريقة القادريّة من الشيخ الطيب الدمشقي والشيخ الزاهد عمر بن علي البَلْبِليتي، والخلافة من الشيخ أحمد البدوي السوداني المُكاشفي والشيخ أحمد العِربيني والشيخ المُعمَّر علي مرتضى الدِّيروي الباكستاني، وأخذ الطريقة الشاذلية من الشيخ أحمد البصير، والنقشبندية من الشيخ عبد الغفور العباسي المدني النقشبندي والخلافة فيها من الشيخ المُعمَّر علي مرتضى الديروي الباكستاني رحمهم الله تعالى، كما أخذ الخلافة بالطريقة الچشتية والسهروردية من الأخير.

- **دخوله بيروت:**

دخل أول مرة بيروت حوالي سنة **١٣٧٢**هـ - **١٩٥٢**ر فاستضافه كبار مشايخها أمثال الشيخ القاضي محيي الدين العجوز والشيخ المستشار محمد الشريف، واجتمع في بيته بمفتي عكار الشيخ بهاء الدين الكيلاني وسأل الشيخ في علم الحديث واستفاد منه. واجتمع أيضًا بالشيخ عبد الوهاب البُوتَاري إمام جامع البسطا الفوقا والشيخ أحمد إسكندراني إمام ومؤذن جامع برج أبي حيدر، وبالشيخ توفيق الهِبري رحمه الله وعنده كان يجتمع بأعيان بيروت وبالشيخ عبد الرَّحمٰن المجذوب واستفادوا منه وبالشيخ مختار العلايلي رحمه الله أمين الفتوى السابق الذي أقرَّ بفضله وسعة علمه وهيَّأ له الإِقامة على كفالة دار الفتوى في بيروت ليتنقّل بين مساجدها مقيمًا الحلقات العلميّة وذلك بإذن خطّي منه.

وفي سنة **١٣٨٩**هـ - **١٩٦٩**ر وبطلب من مدير الأزهر في لبنان

ءانذاك ألقى محاضرة في التوحيد في طلَّاب الأزهر.

- **تصانيفه وءاثاره:**

شغله إصلاح عقائد الناس ومحاربة أهل الإلحاد وقمع فتن أهل البدع والأَهواء عن التفرّغ للتأليف والتصنيف، ورغم ذلك أعدَّ ءاثارًا ومؤلفات قيّمة كثيرة نذكر منها:

١ - القرءان وعلومه

١- كتاب الدُّرّ النضيد في أحكام التجويد، طُبع.

٢ - علم التوحيد

٢- نصيحة الطلاب، وهي منظومة رجزية في الاعتقاد مع ذكر بعض الفوائد العلمية والنصائح تقع في ستّين بيتًا تقريبًا[١]، خ.

٣- الصراط المستقيم، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

٤- الدليل القويم على الصّراط المستقيم، طبع.

٥- المطالب الوفية شرح العقيدة النسفيّة، طبع.

٦- إظهار العقيدة السُّنية بشرح العقيدة الطحاوية، طبع.

٧- الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، طبع.

٨- صريح البيان في الردّ على من خالف القرءان، طبع.

٩- المقالات السُنيّة في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، والكتاب في أشهر المسائل التي خالف فيها ابن تيمية إجماع الأمة في أصول الدين وقد طبع مرات عديدة، طبع.

---

(١) **تنبيه مهم** في ءاخر حياة شيخنا رضي الله عنه أرسل إلى هرر طالبًا من بعض أحبابه ليحذف بيتين من هذه المنظومة أحدهما مدح تفسير ابن كثير وذكر أن السبب في ذلك أنه اطلع بعد ذلك بمدة على تجسيم في التفسير المذكور.

١٠- شرح الصفات الثلاث عشرة الواجبة لله، طبع.

١١- العقيدة المنجية وهي رسالة صغيرة أملاها في مجلس واحد، طبع.

١٢- التحذير الشرعي الواجب، طبع.

١٣- رسالة في بطلان دعوى أولية النور المحمدي، طبع.

١٤- رسالة في الرد على قول البعض إن الرسول يعلم كل شىء يعلمه الله، طبع.

١٥- الغارة الإيمانية في رد مفاسد التحريرية، طبع.

١٦- الدرة البهية في حل ألفاظ العقيدة الطحاوية، طبع.

١٧- التعاون على النهي عن المنكر، طبع.

١٨- قواعد مهمة، طبع.

١٩- رسالة التحذير من الفرق الثلاث، طبع.

٢٠- رسالة في الرد على القاديانية، طبع.

٢١- رسالة في الرد على سيد سابق، خ.

٢٢- النهج السوي في الرد على سيد قطب وتابعه فيصل مولوي، طبع.

٣ - علم الحديث وتعلقاته

٢٣- شرح ألفية السيوطي في مصطلح الحديث، خ.

٢٤- التعقُّب الحثيث على من طعن فيما صحّ من الحديث، طُبع. ردّ فيه على الألباني وفنّد أقواله بالأدلة الحديثية الباهرة حتى قال عنه محدّث الديار المغربية الشيخ عبد الله الغماري رحمه الله «وهو ردٌّ جيّد متقن».

٢٥- نصرة التعقب الحثيث على من طعن فيما صحّ من الحديث، طُبع.

٢٦- تعليقات لطيفة على شرح البيقونيّة في المصطلح، خ.

٢٧- رسالة في التصحيح والتحسين والتضعيف، خ، وهي رسالة أملاها في مجلس واحد بيّن فيها حد الحافظ وشروط التصحيح والتضعيف.

٢٨- أسانيد الكتب السبعة في الحديث الشريف، طبع.

٢٩- أسانيد الكتب الحديثية العشرة، طبع.

٣٠- الأربعون الهررية، وهو أربعون حديثًا من أربعين كتابًا من كتب الحديث مشروحة، خ.

٤ - الفقه وتعلقاته

٣١- مختصر عبد الله الهرري الكافل بعِلم الدين الضروري على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، طُبع.

٣٢- بغية الطالب لمعرفة العِلم الديني الواجب، طُبع.

٣٣- شرح ألفيّة الزّبد في الفقه الشافعي، خ، شرحها بكاملها سوى الخاتمة في التصوف.

٣٤- شرح متن أبي شجاع في الفقه الشافعي، خ، وصل فيه إلى ءاخر باب حد القذف.

٣٥- شرح متن العشماويّة في الفقه المالكي، خ، لم يكمله.

٣٦- شرح التنبيه للإمام الشيرازي في الفقه الشافعي، لم يكمله.

٣٧- شرح منهج الطلاب للشيخ زكريا الأنصاري في الفقه الشافعي، لم يكمله.

٣٨- شرح كتاب سُلَّم التوفيق إلى محبة الله على التحقيق للشيخ عبد الله باعلوي، خ.

٣٩ - مختصر عبد الله الهرري الكافل بعِلم الدين الضروري على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، طبع.

٤٠ – مختصر عبد الله الهرري الكافل بعِلم الدين الضروري على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، طبع.

٥ – اللغة العربية

٤١ – شرح متمّمة الآجرومية في النحو، لم يكمل، خ.

٤٢ – شرح منظومة الصبان في العروض، خ.

٦ – السيرة النبوية وتعلقاتها

٤٣ – الروائح الزكية في مولد خير البرية، طبع.

٤٤– مختصر تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام لعبد الجليل القيرواني، طبع.

٤٥– مختصر الكواكب الدرية في مدح خير البرية المسماة بالبردة للبوصيري، طبع.

٤٦– مختصر عنوان الشريف بالمولد الشريف لعلي بن ناصر الحجازي، طبع.

٤٧– مختصر الفتح الرحماني في ذكر الصلاة على أشرف الخلائق الإنساني سيدنا محمد المصطفى العدناني وعلى ءاله وأصحابه النجباء البررة الكرام، طبع.

٤٨– المولد الشريف، طبع.

وقد كان شرع في جمع رسالة في:

٤٩– تنزُّه كلام الله عن الحرف والصوت واللغة، خ.

٥٠– جزء في أحاديث نص الحفاظ على صحتها وحسنها، خ.

لكن أدركته المنية رحمة الله عليه.

هذا ما كان من مؤلفاته أما ما أملاه من الدروس والرسائل فكثير جدًّا.

- **سيرته وشمائله:**

الشيخ عبد الله الهرري شديد الورع متواضع صاحب عبادة كثير الذّكر، يشتغل بالعلم والذّكر معًا، زاهد طيّب السريرة، شفوق على الفقراء والمساكين، كثير البر والإحسان، لا تكاد تجد له لحظة إلا وهو يشغلها بقراءة أو ذكر أو تدريس أو وعظ وإرشاد، عارِف بالله، متمسّك بالكتاب والسُّنّة، حاضر الذهن قوي الحجّة ساطع الدليل، حكيم يضع الأمور في مواضعها، شديد النكير على من خالف الشرع، ذو همّة عالية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم حتى هابه أهل البدع والضلال وحسدوه ورموه بالأكاذيب والافتراءات بقصد تنفير الناس منه لكن الله يدافع عن الذين ءامنوا.

- **وفاته:**

اشتد عليه المرض فألزمه الفراش بضعة أشهر حتى توفاه الله تعالى فجر يوم الثلاثاء في الثاني من شهر رمضان سنة **١٤٢٩**هـ الموافق الثاني من شهر أيلول سنة **٢٠٠٨**ر.

وهذا ما كان من خلاصة ترجمته الجليلة، ولو أردنا بسطها لكلَّت الأقلام عنها وضاقت الصُّحف ولكن فيما ذكرناه كفاية يُستدل به كما يُستدلّ بالعنوان على ما هو في طيّ الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الصّراطُ الْمُستَقيمُ

الحَمْدُ للهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسولِ اللهِ.

قَالَ اللهُ تَعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(١).

وقالَ عليّ رَضِيَ اللهُ عنْهُ وَكَرَّمَ وَجْهَهُ «اليَوْمَ العَمَلُ وغدًا الحِسابُ»، رواهُ البُخارِيُّ في كِتابِ الرّقاقِ(٢).

أَعْظَمُ حُقوقِ اللهِ على عِبادِهِ

اعلَمْ أنَّ أعْظَمَ حُقوقِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ هُوَ تَوْحيدُهُ تعالى وأنْ لا يُشرَكَ بِهِ شيءٌ، لأنَّ الإشْراكَ باللهِ هُوَ أَكْبَرُ ذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ العَبْدُ وهُوَ الذَّنْبُ الذي لا يَغْفِرُهُ اللهُ ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَن يَشاءُ. قالَ تَعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٣).

وكَذلِكَ جَميعُ أَنْواعِ الكُفْرِ لا يَغْفِرُها اللهُ لِقَولِهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾(٤).

(١) سورة الحشر/الآية (١٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله.
(٣) سورة النساء/الآية (٤٨).
(٤) سورة محمد/الآية (٣٤).

وقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ «**مَن شَهِدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وأَنَّ عيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ والجَنَّةَ حَقٌّ والنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ على ما كانَ مِنَ العَمَلِ**»، رواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١). وفي حَدِيثٍ ءاخَرَ «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ يَبْتَغِي بِذلِكَ وَجْهَ اللهِ**» رَواهُ البُخارِيُّ(٢).

وَيَجِبُ قَرْنُ الإيْمانِ بِرِسالَةِ مُحَمّدٍ بِشَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَذَلِكَ أَقَلُّ شَيْءٍ يَحْصُلُ بِهِ النَّجاةُ مِنَ الخُلُوْدِ الأَبَدِيّ في النَّارِ.

مَعْنى الشَّهادَتَيْنِ

فَمَعْنى شَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ إجمالًا أَعْتَرِفُ بِلِساني وَأَعْتَقِدُ وأُذْعِنُ بِقَلْبِي أَنَّ الْمَعْبُوْدَ بِحَقّ هُوَ اللهُ تَعالى فَقَطْ.

ومعنى شهادةِ أنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ أعترفُ بلسانِي وأُذعِنُ بقلبي أنَّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ مرسلٌ مِن عندِ اللهِ إلى كافةِ العالَمِينَ مِن إنسٍ وجِنّ، صادقٌ في كلّ ما يبلّغهُ عنِ اللهِ تعالى لِيُؤمِنُوا بشريعتهِ ويَتَّبعوهُ.

والمرادُ بالشهادتينِ نَفْيُ الألوهيّةِ عمّا سوى اللهِ وإثباتُها للهِ تعالى معَ الإقرارِ برسالةِ سيّدنا محمّدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [سورة النساء/الآية ١٧١]، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت.

قالَ اللهُ تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾[١] فهذهِ الآيةُ صريحةٌ في تكفيرِ مَن لم يؤمنْ بمحمدٍ ﷺ فمَن نازعَ في هذا الموضوعِ يكونُ قد عاندَ القرءانَ ومَن عاندَ القرءانَ كفرَ.

وأجمعَ[٢] الفقهاءُ الإسلاميّونَ على تكفيرِ مَن دانَ بغيرِ الإسلام وعلى تكفيرِ مَن لم يُكَفّرْهُ أو شَكَّ أو تَوَقَّفَ كأنْ يقولَ أنا لا أَقولُ إنهُ كافرٌ أو غيرُ كافرٍ.

واعلَم باستيقانٍ أنهُ لا يصحُّ الإيمانُ والإسلامُ ولا تُقبَلُ الأعمالُ الصّالحةُ بدونِ الشهادتينِ بلفظِ أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ أو ما في معناهما ولو بغيرِ اللغةِ العربيةِ.

ويكفي لصحّةِ الإسلامِ النطقُ مرةً في العمُرِ ويبقى وجوبُها في كل صلاة لصحة الصلاة، هذا في مَن كانَ على غيرِ الإسلامِ ثم أرادَ الدخولَ في الإسلامِ.

وأما مَن نشأَ على الإسلامِ وكانَ يعتقدُ الشهادتينِ فلا يُشترَطُ في حقهِ النطقُ بهِما بَل هوَ مسلمٌ لو لم ينطِق.

وقالَ ﷺ «**قالَ اللهُ تعالى وما تقرَّبَ إلَيَّ عبدِي بشىءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليهِ**» حديثٌ قدسيٌّ رواهُ البخاريُّ[٣]. وأفضلُ وأولُ فرضٍ هوَ الإيمانُ باللهِ ورسولهِ.

---

(١) سورة الفتح/الآية (١٣).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع.

واعتقادُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ فقط لا يكفِي ما لم يُقرَن باعتقادِ أنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ.

قالَ تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[١] أيْ لا يُحِبُّ اللهُ مَن تولّى عنِ الإيمانِ باللهِ والرسولِ لِكُفْرِهِمْ والمرادُ بطاعةِ اللهِ والرسولِ في هذهِ الآيةِ الإيمانُ بهما.

فهذا دليلٌ على أنَّ مَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورسولهِ محمّدٍ ﷺ فهوَ كافرٌ وأنَّ اللهَ تعالى لا يُحبّهُ لكُفْرِهِ.

فمَن قالَ إنَّ اللهَ يحبُّ المؤمنينَ والكافرينَ لأنهُ خلقَ الجميعَ فقد كذّبَ القرءانَ فيُقالُ لهُ اللهُ خلقَ الجميعَ لكنْ لا يحبُّ الكلَّ.

الفَرضُ على كلِّ مكلَّفٍ

واعْلَمْ أنَّ النطقَ بالشهادتينِ بعدَ البلوغِ فرضٌ على كلّ مكلّفٍ مرةً واحدةً في عمرهِ بنيّةِ الفرضِ عندَ المالكيةِ لأنهم لا يوجبونَ التحياتِ في الصّلاةِ إنما هُم يعتبرونها سنةً وعندَ غيرِهم كالشافعيةِ والحنابلةِ تجبُ في كلّ صلاةٍ لصحّةِ الصلاةِ.

---

(١) سورة ءال عمران/الآية (٣٢).

لا دينَ صحيحٌ إلا الإسلامُ

الدينُ الحقُّ عندَ اللهِ الإسلامُ قالَ تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[١]، وقالَ تعالى أيضًا ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٢].

فكلُّ الأنبياءِ مسلمونَ فمَن كانَ متّبعًا لموسَى ﷺ فهوَ مسلمٌ موسويٌّ، ومَن كانَ متّبعًا لعيسى ﷺ فهوَ مسلمٌ عيسويٌّ، ويصحُّ أن يقالَ لمَنِ اتَّبَعَ محمّدًا ﷺ مسلمٌ محمَّديٌّ.

والإسلامُ هوَ الدينُ الذي رضيَهُ اللهُ لعبادهِ وأمَرَنا باتّباعهِ.

ولا يُسَمَّى اللهُ مُسْلِمًا كما تلفظَ بهِ بعضُ الجهالِ.

فقديمًا كانَ البشرُ جميعُهم على دينٍ واحدٍ هوَ الإسلامُ، وإنما حدثَ الشّرْكُ والكفرُ باللهِ تعالى بعدَ النبيّ إدريسَ.

فكانَ نوحٌ أولَ نبيّ أُرسلَ إلى الكفارِ يدعُو إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ الذي لا شريكَ لهُ، وقَد حذَّرَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مِن بعدهِ منَ الشّرْكِ.

فقامَ سيّدُنا محمدٌ ﷺ بتجديدِ الدعوةِ إلى الإسلامِ بعدَ أنِ انقطعَ في ما بينَ الناسِ في الأرضِ مؤيَّدًا بالمعجزاتِ الدالةِ على نبوّتهِ فدخلَ البعضُ في الإسلامِ، وجحدَ بِنُبُوَّتِهِ أهلُ الضلالِ الذينَ منهم مَن كانَ مشركًا قبلًا كفرقةٍ منَ اليهودِ عبدَتْ

---

(١) سورة ءال عمران/الآية (٨٥).
(٢) سورة ءال عمران/الآية (١٩).

عُزَيْرًا فازدادوا كفرًا إلى كُفرِهِمْ، وءامنَ بهِ بعضُ أهلِ الكتابِ اليهودِ والنصارى كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ عالِمِ اليهودِ بالمدينةِ، وأصْحَمَةَ النَّجَاشِي ملكِ الحبشةِ وكانَ نصرانيًّا ثم اتَّبَعَ الرسولَ اتباعًا كاملًا وماتَ في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ وصلى عليهِ الرسولُ صلاةَ الغائبِ يومَ ماتَ[١] أوْحَى اللهُ إليهِ بموتِهِ. ثم كانَ يُرى على قبرهِ في اللَّيالِي نورٌ وهذا دليلٌ أنهُ صارَ مسلمًا كاملًا وَليًّا مِن أولياءِ اللهِ رضي الله عنه.

والمبدأُ الإسلاميُّ الجامعُ لجميعِ أهلِ الإسلامِ عبادةُ اللهِ وحدَهُ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجنائز باب الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك.

حُكمُ من يَدَّعِي الإسلامَ لفظًا وهو مناقضٌ للإسلامِ معنًى

هناكَ طوائفُ عديدةٌ كَذَّبتِ الإسلامَ معنًى ولو انتمَوْا للإسلامِ بقولِهِمُ الشهادتينِ أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمدًا رسولُ الله وصلَّوْا وصامُوا لأنّهُمْ ناقَضُوا الشهادتينِ باعتقادِ ما يُنافيهما فإنّهُم خرجوا منَ التَّوحيدِ بِعِبادَتِهِم لِغَيْرِ اللهِ فهم كفَّارٌ ليسوا مسلمينَ كالذين يعتقدونَ ألوهيّةَ عليّ بنِ أَبِي طالبٍ أو الخَضِرِ أو الحاكمِ بأمرِ الله وغيرِهِم أو بِما في حُكْمِ ذَلِكَ مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ.

وحُكمُ من يَجْحَدُ الشهادتينِ التّكفيرُ قَطْعًا ومأواهُ جَهَنَّمُ خَالدًا فيها أبدًا لا يَنْقَطِعُ في الآخِرَةِ عَنْهُ العَذَابُ إِلى ما لا نِهايةَ لهُ وما هُوَ بِخَارجٍ من النَّارِ.

ومَنْ أدَّى أعظمَ حقوقِ الله بتوحيدِهِ تعالى أيْ تَرْكِ الإشْرَاكِ بهِ شَيْئًا وَتصديقِ رسولِهِ ﷺ لا يَخْلُدُ في نارِ جهنَّمَ خلُودًا أبديًّا وإنْ دَخَلَها بِمعاصيه وَمآلُهُ في النّهايَةِ عَلَى أيّ حالٍ كانَ الْخُروجُ مِنَ النّارِ ودُخُولُ الْجنَّةِ بَعْدَ أنْ يكونَ قدْ نالَ العِقابَ الذي يستحقُّ إنْ لَمْ يَعْفُ الله عنهُ، قالَ رسولُ الله ﷺ «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قالَ لا إِله إلا اللهُ وفي قَلْبِهِ وزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمانٍ**» رواه البخاريُّ(١).

وأمّا الّذِي قامَ بتَوْحيدِهِ تعالى وَاجْتَنَبَ مَعاصِيَهُ وَقامَ بأوامِرِهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه.

فَيَدْخُلُ الْجنَّةَ بلا عَذَابٍ حيثُ النَّعيمُ الْمُقيمُ الْخالِدُ بِدلالَةِ الْحديثِ القُدْسِيّ الَّذي رَوَاهُ أبُو هُرَيْرَةَ قالَ رسولُ الله ﷺ «**قال اللهُ عَزَّ وجلَّ أعدَدْتُ لعبادِي الصّالِحين ما لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**». وقالَ أبُو هُريرةَ «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ قولَهُ تـعـالـى ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾»[1] رَوَاهُ البُخاريُّ في الصَّحيحِ[2].

بيانُ أقسامِ الكفرِ

واعْلَمْ يا أخِي الْمُسْلِمَ أنَّ هُناكَ اعْتِقَاداتٍ وَأَفْعالًا وأقْوالًا تَنْقُضُ الشَّهادَتَيْنِ وتُوقِعُ في الكُفْرِ لأن الكفرَ ثلاثةُ أنواع كفرٌ اعتقاديٌّ وكفرٌ فعليٌّ وكفرٌ لفظيٌّ، وَذلِك باتّفاقِ الْمذاهِبِ الأربعةِ كالنَّوويّ[3] وابن الْمُقرِئ[4] من الشافعيةِ وابنِ عابدينَ[5] مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالبُهُوتِيّ[6] مِنَ الْحنابلةِ والشَّيخ مُحمَّد عِلَيْش[7] مِنَ المالكية وغيرِهم فَلْيَنْظُرْهَا مَنْ شاءَ. وَكذَلِكَ غَيْرُ عُلَماءِ الْمَذَاهِبِ الأربعةِ مِن الْمُجْتَهِدِينَ الْماضِينَ كالأوْزاعيّ فإنَّهُ كانَ مُجْتَهِدًا له مذهبٌ كان يُعمَلُ بِهِ ثُمَّ انقَرَضَ أتباعُهُ.

---

(١) سورة السجدة/الآية (١٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.
(٣) المنهاج (ص/ ١٣١)، روضة الطالبين كتاب الردة (١٠/ ٦٤).
(٤) الإرشاد (ص/ ١٨١ - ١٨٢).
(٥) رد المحتار على الدر المختار، باب المرتد (٣/ ٢٨٣).
(٦) شرح منتهى الإرادات، باب حكم المرتد (٣/ ٣٨٦).
(٧) منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٥).

الكفرُ الاعتقاديُّ مكانُهُ القلبُ كنفْيِ صفةٍ من صفاتِ اللهِ تعالى الواجبةِ لهُ إجماعًا كوجودِهِ وكونِهِ قادرًا وكونِهِ سميعًا بصيرًا أو اعتقادِ أَنَّهُ نورٌ بمعنى الضوءِ أو أنّه روحٌ.

قالَ الشيخُ عبدُ الغنيّ النابلسِيُّ[١] «مَنِ اعتقدَ أنَّ الله ملأَ السمٰواتِ والأرضَ أو أنّهُ جسمٌ قاعدٌ فوقَ العرشِ فهو كافرٌ وإنْ زعمَ أَنَّهُ مسلمٌ».

الكُفْرُ الفعليُّ كإلقاءِ المصحفِ في القاذوراتِ قالَ ابنُ عابدينَ[٢] ولو لم يَقصدِ الاستخفافَ لأنَّ فِعلَهُ يَدُلُّ على الاستخفافِ. أو أوراقِ العلومِ الشرعيّةِ أو أيّ ورقةٍ عليها اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى معَ العلمِ بوجودِ الاسمِ فيها، ومَنْ عَلَّقَ شعارَ الكُفْرِ على نفسِهِ فإنْ كانَ بِنِيَّةِ التبركِ أو التعظيمِ أو الاستحلالِ من غيرِ ضرورةٍ كان مرتدًّا.

الكفرُ القولِيُّ كمن يشتِمُ اللهَ تعالى بقولِهِ والعياذُ باللهِ مِنَ الكُفْرِ (أختَ ربّكَ) أو (ابنَ اللهِ) يقعُ الكفرُ هنا ولو لم يعتقدْ أنَّ للهِ أختًا أو ابْنًا.

ولو نادَى مسلمٌ مسلمًا ءاخرَ بقولِهِ (يا كافرُ) بلا تأويلٍ كَفَرَ القائلُ لأَنَّهُ سَمَّى الإسلامَ كفرًا، ويَكفُرُ مَنْ يقولُ للمسلمِ (يا يهوديُّ) أو أمثالَها منَ العِباراتِ بنيّةِ أنه ليسَ بمسلمٍ إلا إذا قَصَدَ أَنَّهُ يُشْبِهُ اليهودَ فلا يكفرُ.

ولو قالَ شخصٌ لزوجتِهِ (أنتِ أحبُّ إلَيَّ منَ اللهِ) أو

(١) الفتح الرباني (ص/ ١٢٤).
(٢) رد المحتار (٤/ ٢٢٢).

(أعبدُكِ) كفرَ إن كان يفهمُ منها العبادةَ التي هي خاصةٌ للهِ تعالى.

ولو قال شخصٌ لآخرَ (اللهُ يظلمُكَ كما ظلمتنِي) كفرَ القائلُ لأنّه نسبَ الظلمَ إلى اللهِ تعالى، إلاّ إذا كانَ يَفْهَمُ أنَّ معنى يظلمُكَ يَنْتَقِمُ منكَ فلا نُكَفِّرُهُ بل نَنْهَاهُ.

ولو قالَ شخصٌ لشخصٍ ءاخرَ [بعاميَّةِ بعضِ البلادِ] والعياذُ باللهِ (يلعن ربَّكَ)[1] كَفَرَ.

وكذلك يكفرُ من يقولُ للمسلم [بعاميّةِ بعضِ البلادِ] (يلعن دينَكَ) قالَ بعضُ الفقهاءِ إنْ قَصَدَ سيرتَهُ فلا يكفرُ. قال بعضُ الحنفيّةِ يكفرُ إنْ أَطلقَ أيْ إنْ لم يَقْصِدْ سيرتَهُ ولا قصدَ دينَ الإسلامِ.

وكذلك يكفرُ مَنْ يقولُ والعياذُ باللهِ (فلانٌ زاحَ رَبّي) لأنَّ هذا فيه نسبةُ الحركةِ والمكانِ للهِ[2].

وكذلكَ يكفرُ مَنْ يقولُ والعياذُ باللهِ (قَدّ الله) يقصدُ المماثلةَ[3].

وكذلك يكفرُ مَنْ نَسَبَ إلى اللهِ جارحةً منَ الجوارحِ كقولِ بعضِ السفهاءِ (يا زبَّ اللهِ) وهو لفظٌ صريحٌ في الكفرِ لا يُقبَلُ فيه التأويلُ.

وكذلك يكفرُ من يقولُ (أنا ربُّ مَنْ عملَ كذا).

---

(١) هذه كلمة عامية تستعمل في بلاد الشام بمعنى ألعنُ ربك والعياذ بالله.
(٢) وكذلك يفهمون منها نسبة الانزعاج إليه والعياذ بالله تعالى.
(٣) أي هكذا يفهم منها العوام عند النطق بها.

وكذلك يكفرُ مَنْ يقولُ والعياذُ باللهِ (خَوَت رَبّي)[١].

أو قالَ للكافرِ (اللهُ يُكرمُكَ) بقصدِ أنْ يُحبَّهُ اللهُ كفرَ لأنَّ الله تعالى لا يُحبُّ الكافرينَ كما قالَ تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢].

وكذلك القولُ للكافرِ (اللهُ يغفرُ لكَ) إنْ قَصَدَ أنَّ الله تعالى يغفرُ له وهو على كُفْرِهِ إلى الموتِ.

وكذلك يكفرُ مَنْ قالَ لِمَنْ ماتَ على الكُفْرِ (اللهُ يرحمُهُ) بِقَصْدِ أنْ يُرِيحَهُ في قَبْرِهِ لا بقصدِ أن يُخفَّفَ عنه عذابُ القبرِ مِنْ غيرِ أن ينالَ راحةً فإنَّهُ إنْ قالَ ذلك بِهذا القصدِ فيحتمل أنّه لا يكفر.

ويكفرُ مَنْ يَستعملُ كلمةَ الخَلْقِ مضافةً للناسِ في الموضعِ الذي تكونُ فيه بمعنى الإبرازِ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ كأنْ يقولَ لشخصٍ ما (اخْلُقْ لِي كذا كما خلقَكَ اللهُ).

ويكفرُ مَنْ يَشتم عزرائيلَ عليه السلامُ كما قال ابنُ فَرحُون في تبصرة الحكام[٣]، أو أيَّ مَلَكٍ مِنَ الملائكةِ عليهمُ السلامُ.

وكذلكَ من يقولُ (أنا عايفُ الله) أي كرهتُ الله.

ويكفرُ مَنْ يقولُ (اللهُ لا يتحملُ فلانًا) إذا فهمَ العجْزَ أو أنَّ الله يَنْزَعجُ منه، أمّا إذا كان يفهمُ من هذه الكلمةِ أنَّ الله يكرهُهُ فلا يكفرُ.

ويكفرُ من يقولُ (يلعن سماء ربك) لأنه استخفَّ بالله تعالى.

---

(١) أي جنّن.
(٢) سورة ءال عمران/الآية (٣٢).
(٣) تبصرة الحكام (٢/١٩٦).

وكذلكَ من يُسمِّي المعَابدَ الدينيةَ للكفارِ (بيوتَ الله)، وأمّا قولُهُ تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ﴾[1] فالمرادُ به معابدُ اليهودِ والنَّصَارَى لَمَّا كانُوا على الإسلامِ لأنّها كمساجدِ أمّةِ محمدٍ حيثُ إنَّ الكلَّ بُنِيَ لتوحيدِ اللهِ وتمجيدِهِ لا لعبادةِ غيرِ اللهِ فقد سمّى اللهُ المسجدَ الأقصى مسجدًا وهو ليس من بناءِ أمّةِ محمدٍ. فَلْيَتَّقِ اللهَ امرؤٌ ولْيَحْذَرْ أنْ يُسَمّيَ ما بُنِيَ للشركِ بيوتَ الله ومَنْ لم يتّقِ اللهَ قال ما شاءَ.

وكذلكَ مَنْ حَدَّثَ حديثًا كَذِبًا وهو يعلمُ أَنَّهُ كَذِبٌ فقالَ (اللهُ شهيدٌ على ما أقولُ) بقصدِ أنَّ اللهَ يعلمُ أنَّ الأمرَ كما قلتُ لأنّه نَسَبَ الجهلَ للهِ تعالى لأنّ الله يعلمُ أنّه كاذبٌ ليس صادقًا.

وكذلك لا يجوز القولُ (كلُّ واحدٍ على دينِهِ اللهُ يُعينُهُ) بقصدِ الدعاءِ لِكُلٍ.

ويكفرُ مَنْ يقولُ مُعَمّمًا كلامَهُ (الكلبُ أحسنُ مِنْ بَنِي ءادمَ).

أو مَنْ يقولُ (العربُ جَرَبٌ)، أمّا إذا خَصَّصَ كلامَهُ لفظًا أو بقرينةِ الحالِ كقولِهِ اليومَ العربُ فَسَدُوا ثم قالَ العَرَبُ جربٌ فلا يكفرُ.

ويكفرُ مَنْ يُسَمّي الشيطانَ ببسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ لا إنْ ذكرَ البَسْمَلَةَ بنيّةِ التَّعَوُّذِ باللهِ مِنْ شَرِّهِ.

وهناك بعضُ الشعراءِ والكُتَّابِ يكتبُ كلماتٍ كفريةً كما كتبَ أَحَدُهُم (هربَ اللهُ) فهذا مِنْ سُوءِ الأدبِ معَ اللهِ الموقِعِ في

(١) سورة الحج/الآية (٤٠).

الكفرِ وقد قال القاضِي عياضٌ في كتابِهِ الشِفا[١] «لا خلافَ أنَّ سابَّ اللهِ تعالى من المسلمين كافر» اهـ

ويكفرُ مَنْ يستحسنُ هذه الأقوالَ والعباراتِ وما أكثرَ انتشارَها في مؤلفاتٍ عديدةٍ.

وسوءُ الأدبِ مع الرسولِ ﷺ بالاستهزاءِ بحالٍ مِنْ أحوالِهِ أو بعملٍ من أعمالِهِ كفرٌ.

والاستهزاءُ بما كُتب فيه شىءٌ من القرءان الكريم، أو الأنبياءِ عليهمُ السلامُ، أو بشعائِر الإسلامِ أو بِحُكْمٍ مِنْ أحكامِ اللهِ تعالى كفرٌ قطعًا.

وكذلك استحسانُ الكفرِ مِنْ غَيْرِهِ كفرٌ لأنّ الرضى بالكفر كفرٌ.

ولا يكفرُ مَنْ نَقَلَ[٢] عن غيرِهِ كفريَّةً حصلتْ منه مِنْ غيرِ استحسانٍ لها بقولِهِ قال فلانٌ كذا، ولو أَخَّرَ صيغةَ قالَ إلى ءاخرِ الجملةِ فيُشترط أن يكونَ في نِيَّتِهِ ذِكْرُ أداةِ الحكايةِ مُؤَخَّرَةً عنِ الابتداءِ.

ما يستثنى من الكفرِ القولي

يُستثنى مِنَ الكفرِ اللَّفْظِيّ حالةُ سَبْقِ اللّسانِ أي أنْ يتكلمَ بشىءٍ مِنْ ذلكَ مِنْ غيرِ إرادةٍ بَلْ جَرَى على لسانِهِ ولم يَقصِدْ أنْ يقولَهُ بالمرةِ.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٧٠).
(٢) كتابةً أو قولًا.

وحالةُ غيبوبةِ العَقْلِ أيْ عدمِ صَحْوِ العقلِ.

وحالةُ الإكراهِ فَمَنْ نَطَقَ بالكُفْرِ بلسانِهِ مُكْرَهًا بالقتلِ ونحوِهِ وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمانِ فلا يكفرُ قالَ تعالَى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

حالةُ الحكايةِ لكفرِ الغَيْرِ فلا يكفرُ الحاكِي كُفْرَ غيرِهِ على غيرِ وجهِ الرضَى والاستحسانِ، ومُسْتَنَدُنا في استثناءِ مسئلةِ الحكايةِ قولُ اللهِ تعالَى ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[2]، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[3].

ثم الحكايةُ المانعةُ لكُفْرِ حاكِي الكفرِ إمَّا أنْ تكونَ في أولِ الكلمةِ التي يحكيها عمن تكلمَ بكفرٍ أو بعدَ ذِكرِهِ الكلمةَ عَقِبَها وقد كان ناويًا أن يأتِيَ بأداةِ الحكايةِ قبل أن يقول كلمةَ الكفرِ فلو قالَ المسيحُ ابنُ اللهِ قولُ النصارى أو قالتْهُ النصارى فهي حكايةٌ مانعةٌ للكفرِ عنِ الحاكِي.

وحالةُ كونِ الشخصِ متأوّلًا باجتهادِهِ في فهمِ الشرعِ فإنَّهُ لا يكفرُ المتأوّلُ إلا إذا كان تأوُّلُهُ في القطعيّاتِ فأخطأَ فإنَّهُ لا يُعذَرُ كتأوُّلِ الذين قالوا بِقِدَمِ العالَمِ وأزليَّتِهِ كابنِ تيميةَ[4]. وأمّا مثالُ مَنْ لا يكفرُ مِمَّنْ تأوَّلَ فهو كَتَأَوُّلِ الذين منعوا الزكاةَ في

---

(١) سورة النحل/الآية (١٠٦).

(٢) سورة التوبة/الآية (٣٠).

(٣) سورة المائدة/الآية (٦٤).

(٤) الموافقة (٢/ ٧٥)، المنهاج (١/ ٨٣)، نقد مراتب الإجماع (ص/ ١٦٨)، الفتاوى (٦/ ٣٠٠)، مجموعة تفسير (ص/ ١٢ - ١٣).

عهدِ أبِي بكرٍ بأنَّ الزكاةَ وجبتْ في عهدِ الرسولِ لأنَّ صلاتَهُ كانت عليهم سَكَنًا لهم أي رحمةً وطُمَأْنينةً وطُهْرَةً وأنَّ ذلك انقطعَ بموتِهِ فإنَّ الصحابةَ لم يُكَفِّرُوهُمْ لذلك لأنّ هؤلاء فهموا من قوله تعالى ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾[1] أنّ الْمُرادَ مِنْ قولِهِ ﴿خُذۡ﴾ أيْ يا محمدُ الزكاةَ لتكونَ إذا دفعوها إليك سَكَنًا لهم، وأنَّ هذا لا يحصلُ بعدَ وفاتِهِ فلا يجبُ عليهم دفعُها لأنه قد ماتَ وهو المأمورُ بأخذِهَا مِنْهُمْ، ولم يفهموا أنَّ الحكمَ عامٌّ في حالِ حياتِهِ وبعدَ موتِهِ وإنَّما قاتَلَهُمْ أبو بكر كما قاتلَ المرتدّينَ الذين اتَّبَعُوا مُسَيْلِمَةَ الكذَّابَ في دَعْوَاهُ النُّبُوَّةَ لأنّه ما كانَ يُمكنُهُ أنْ يأخذَ منهمُ قهرًا بدونِ قتالٍ لأنَّهُمْ كانوا ذَوِي قُوَّةٍ فاضْطُرَّ إلى القتالِ. وكذلك الذينَ فَسَّرُوا قولَ اللهِ تعالَى ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾[2] بأنّه تخييرٌ وليس تحريمًا للخمرِ فَشَرِبُوها لأنّ عمرَ ما كَفَّرَهُمْ وإنما قالَ «اجْلِدُوهُمْ ثمانينَ ثمانينَ، ثم إن عادُوا فاقتلوهم» اهـ رواهُ ابنُ أبِي شَيْبَةَ[3].

إنما كفَّرُوا الآخرينَ الذين ارتدُّوا عنِ الإسلامِ لتصديقِهِمْ لِمُسَيْلِمَةَ الكذّابِ الذِي ادَّعَى الرّسالةَ فمُقاتَلَتُهُمْ لِهؤلاء الذين تَأَوَّلُوا مَنْعَ الزكاةِ على هذا الوجهِ كانَ لأخذِ الحقِّ الواجبِ عليهِمْ في أموالِهِمْ، وذلك كقتالِ البُغَاةِ فإنَّهُمْ لا يُقاتَلون

---

(١) سورة التوبة/الآية (١٠٣).

(٢) سورة المائدة/الآية (٩١).

(٣) المصنف (٥/ ٥٠٣)، وتاريخ ابن عساكر (٢٤/ ٣٩٠)، وسنن النسائي (٣/ ٢٥٢) كتاب الحد في الخمر.

لِكُفْرِهِمْ بل يُقاتَلون لردّهم إلى طاعةِ الخليفةِ كالذين قاتلهم سيدُنا عليٌّ في الوقائعِ الثّلاثِ وقعة الجملِ ووقعة صِفّينَ مع معاويةَ ووقعة النّهروانِ مَعَ الخوارجِ، على أنّ مِنَ الخوارجِ صنفًا هم كفّارٌ حقيقةً فأولئكَ لَهُمْ حُكْمُهُمُ الخاصُّ.

قال الحافظُ أبو زُرْعَةَ العِراقيُّ في نُكَتِهِ[١] «وقالَ شيخُنا أيضًا - يعنِي البُلْقِينيَّ - ينبغِي أن يُقالَ بلا تأويلٍ لِيَخْرُجَ البغاةُ والخوارجُ الذين يَستحلّونَ دماءَ أهلِ العدلِ وأموالَهُمْ ويعتقدونَ تحريمَ دمائِهم على أهلِ العَدْلِ، والذين أنكروا وجوبَ الزكاةِ عليهمْ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ بالتأويلِ فإنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لم يكفّروهم» اهـ وهذا شاهدٌ مِنْ منقولِ المذهَبِ لِمسئلةِ التأويلِ بالاجتهادِ.

ومِمَّا يشهدُ من المنقولِ في مسئلةِ الاجتهادِ بالتأولِ وحكايةِ الكفرِ قولُ شمسِ الدينِ الرملِيّ في شرحِهِ على منهاجِ الطالبينَ في أوائلِ كتابِ الردةِ في شرحِ قولِ النووِيّ الردّةُ قَطْعُ الإسلامِ بنيّةٍ أو قولِ كُفْرٍ ما نصُّهُ[٢] «فلا أثَرَ لِسَبْقِ لسانٍ أو إكراهٍ واجتهادٍ وحكايةِ كفرٍ» اهـ

وقولُ الْمُحَشّي - أيْ صاحبِ الحاشيةِ على الشرحِ - نورِ الدينِ عليّ الشَّبْراملّسيّ المتوَفَّى سنةَ ألفٍ وسبعٍ وثمانينَ عند قول الرّمليّ «واجتهادٍ» ما نصُّهُ[٣] «أيْ لا مطلقًا كما هو ظاهرٌ لِمَا سيأتِي من نحوِ كُفْرِ القائلين بِقِدَمِ العالَمِ مع أنّه بالاجتهادِ

(١) النكت (٣/ ١٧٧).
(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٧/ ٤١٤).
(٣) حاشية الشبراملسي على نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٧/ ٤١٤).

والاستدلالِ» اهـ قال الْمُحَشّي الآخرُ على الرملِيّ أحمدُ بنُ عبد الرزّاق المعروفُ بالمغربِيّ الرشيدِيّ المتوفَّى سنةَ ألفٍ وستّ وتسعين قولُهُ[1] «واجتهادٍ» أي في ما لم يَقُمِ الدليلُ القاطعُ على خلافه بدليلِ كفرِ نحوِ القائلين بِقِدَمِ العالَمِ مع أنّه بالاجتهاد اهـ ومن هنا يُعلم أنّه ليس كلُّ متأوّلٍ يَمْنَعُ عنه تأويلُهُ التكفيرَ، فليجعلْ طالبُ العِلْمِ قولَ الرشيديّ المذكورَ في ما لم يَقُمْ دليلٌ قاطعٌ على ذُكْرٍ يعنِي أن يكونَ مستحضرًا لِهذه الكلمةِ في قلبِهِ لأنَّها مهمَّةٌ، لأنَّ التأوُّلَ مع قيامِ الدليلِ القاطعِ لا يَمْنَعُ التكفيرَ عن صاحبِهِ.

وقولُنا في الخوارجِ باستثناءِ بعضِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لم يُكَفَّروا لثبوتِ ما يقتضِي التكفيرَ في بعضِهِم كما يؤيّدُهُ قولُ بعضِ الصحابةِ الذينَ رَوَوْا أحاديثَ الخوارجِ.

وأمّا ما يُروى عن سيّدنا عليّ من أنّه قال[2] «إخوانُنا بَغَوْا علينا» فليس فيه حجّةٌ للحكمِ على جميعِهِم بالإسلامِ، لأنّه لم يَثبتْ إسنادًا عن عليّ، وقد قطع الحافظُ المجتهدُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ بتكفيرِهِمْ وغيرُهُ[3]، وحُمِلَ ذلك على اختلافِ أحوالِ الخوارجِ بأنَّ منهم مَنْ وَصَلَ إلى حدّ الكُفْرِ ومنهمْ مَنْ لَمْ يَصِلْ، وهذه المسئلةُ بعضُهُمْ عبَّرَ عنها بالاجتهادِ وبعضُهُمْ عبَّرَ عنها بالتأويلِ، فَمِمَّنْ عبَّرَ بالتأويلِ الحافظُ الفقيهُ الشافعيُّ سراجُ

---

(١) حاشية المغربي على نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٧/ ٤١٤).
(٢) رواه البيهقي في سننه (٨/ ١٧٣).
(٣) كالقاضي عياض والقرطبي انظر فتح الباري (١٢/ ٣٠٠) وقد عزاه إلى الطبري في تهذيبه.

الدينِ البُلقينيُّ الذي قال فيه صاحبُ القاموسِ[١] «علاَّمةُ الدُّنْيا»، وعبَّرَ بعضُ شُرَّاحِ[٢] منهاجِ الطالبينَ بالاجتهادِ وكلتا العبارتينِ لا بُدَّ لهما مِنْ قيدٍ ملحوظٍ.

ومِنْ هنا يُعلم أنّه ليس كلُّ مُتَأَوّلٍ يَمنعُ عنه تأويلُهُ التكفيرَ، فلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك مطلَقٌ لأنَّ الإطلاقَ في ذلك انحلالٌ ومُروقٌ منَ الدينِ. ألا ترى أنَّ كثيرًا منَ المنتسبينَ إلى الإسلامِ المشتغلينَ بالفلسفةِ مَرَقُوا مِنَ الدّينِ باعتقادِهِمُ القولَ بأزليَّةِ العالَمِ اجتهادًا منهم ومع ذلك أجمعَ المسلمونَ على تكفيرِهِمْ كما ذكرَ ذلك المحدّثُ الفقيهُ بدرُ الدّين الزركشيُّ في شرحِ جمعِ الجوامعِ فإنّه قال بعد أن ذكرَ الفريقين منهم الفريقَ القائلَ بأزليةِ العالَمِ بمادتِهِ وصورتِهِ والفريقَ القائلَ بأزليةِ العالَمِ بمادتِهِ أي بجنسِهِ فقط ما نصُّهُ[٣] «وقد ضللهم المسلمونَ في ذلك وكفَّروهم».

وكذلك المرجئةُ القائلون بأنَّهُ لا يَضُرُّ معَ الإيمانِ ذنبٌ كما لا تنفعُ معَ الكفرِ حسنةٌ إنما قالوا ذلك اجتهادًا وتأويلًا[٤] لبعضِ النصوصِ على غيرِ وجهِها فلم يُعذَرُوا، وكذلك ضلَّ فرقٌ غيرُهُمْ وهُمْ مُنتسبون إلى الإسلامِ كان زيغُهم بطريقِ الاجتهادِ بالتأويلِ نسألُ اللهَ الثباتَ على الحقّ.

---

(١) القاموس المحيط (ص/ ١٥٢٤).
(٢) نهاية المحتاج (٧/ ٤٠٢).
(٣) تشنيف المسامع (٤/ ٧٠).
(٤) فإنهم تأولوا هذه الآية ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سورة سبأ] حملوها على أن معناها لا عقوبة في الآخرة إلا على الكافر. وهذا التأول لا ينفعهم.

قاعدةٌ اللَّفْظُ الذِي له معنيانِ أحدُهُما نوعٌ مِنْ أنواعِ الكفرِ والآخرُ ليس كفرًا وكان المعنى الذِي هو كفرٌ ظاهرًا لا يُكَفَّرُ قائله حتى يُعرف منه أيّ المعنيين أراد فإن قال أردتُ المعنى الكفريَّ حُكم عليه بالكفر وأُجرِيَ عليه أحكامُ الردّةِ وإلا فلا يُحكم عليه بالكفرِ، وكذلك إن كان اللفظُ له معانٍ كثيرةٌ وكان كلُّ معانيه كفرًا وكان معنى واحدٌ منها غيرَ كفرٍ لا يُكَفَّرُ إلاّ أن يُعْرَفَ منه إرادةُ المعنى الكفريّ وهذا هو الذِي ذكرَهُ بعضُ العلماءِ الحنفيين في كُتُبِهِمْ. وأمَّا ما يقولُهُ بعضُ النَّاسِ من أنَّهُ إذا كانَ في الكلمةِ تسعةٌ وتسعون قولًا بالتكفيرِ وقولٌ واحدٌ بتركِ التكفيرِ أُخِذَ بتركِ التكفيرِ فلا معنى له، ولا يصحُّ نسبةُ ذلك إلى مالكٍ ولا إلى أبِي حنيفةَ كما نَسَبَ سيد سابق[1] شِبْهَ ذلك إلى مالكٍ وهو شائعٌ على ألسنةِ بعضِ العصريين فَلْيَتَّقُوا اللهَ.

قال العلماءُ أمَّا الصريحُ أيِ الذِي ليس له إلاّ معنًى واحدٌ يقتضِي التكفيرَ فيُحكم على قائلِهِ بالكفرِ كقولِ (أنا اللهُ) حتى لو صدرَ هذا اللفظُ من وَلِيّ في حالةِ غَيْبَةِ عقلِهِ يُعَزَّرُ ولو لَمْ يكنْ هو مكلفًا تلك الساعةَ قالَ ذلك عزُّ الدينِ بنُ عبدِ السلامِ[2]، وذلك لأنَّ التعزيرَ يُؤَثّرُ في مَنْ غابَ عقلُهُ كما يُؤَثّرُ في الصاحِي العاقلِ وكما يؤثرُ في البهائمِ فإنَّها إذا جَمَحَتْ فضُرِبَتْ تَكُفُّ عن جُموحِها مع أنّها ليستْ بعاقلةٍ. كذلك الولِيُّ الذِي نطقَ

(١) فقه السنة (٢/ ٤٥٣).

(٢) حاشية الجمل (٧/ ٥٦٨).

بالكفرِ في حالِ الغَيْبَةِ عندما يُضرَبُ أو يُصرَخُ عليه يَكُفُّ للزّاجِرِ الطبيعيّ. على أنَّ الولِيَّ لا يصدرُ منه كفرٌ في حالِ حضورِ عقلِهِ إلاّ أنْ يَسْبِقَ لسانُهُ لأنَّ الولِيَّ محفوظٌ مِنَ الكُفْرِ بخلافِ المعصيةِ الكبيرةِ أو الصغيرةِ فإنَّ ذلك يجوزُ على الولِيّ لكنْ لا يستمرُ عليه بل يتوبُ عن قربٍ. وقد يحصُلُ من الوَلِيّ معصيةٌ كبيرةٌ قبل موتِهِ بقليلٍ لكنْ لا يموتُ إلاَّ وقدْ تابَ كطلحةَ ابنِ عبيدِ اللهِ والزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما فإنَّهما خرجا على أميرِ المؤمنينَ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بوقوفِهِما معَ الذينَ قاتلوهُ في البصرةِ فذكَّرَ عليٌّ كلاًّ منهما حديثًا، أمَّا الزُّبَيْرُ فقال له أَلَمْ يَقُلْ لكَ رسولُ اللهِ «**إنَّكَ لَتُقاتِلَنَّ عليًّا وأنتَ ظالِمٌ لهُ**»[1] فقالَ نسيتُ، فذهبَ منصرفًا عن قتالِهِ ثمَّ لَحِقَهُ في طريقِهِ رجلٌ مِنْ جيشِ عَلِيّ فقتلَهُ. فتابَ بتذكيرِ عَلِيّ له فلم يَمُتْ إلا تائبًا. وأما طلحةُ فقال له عَلِيٌّ أَلَمْ يَقُلْ رسولُ اللهِ ﷺ «**مَنْ كُنْتُ مولاه فَعَلِيٌّ مولاهُ**»[2] فذهبَ منصرفًا فضربَهُ مروانُ بنُ الحكَم فقتلَهُ، وهو أيضًا تابَ ونَدِمَ عندَ ذِكْرِ عَلِيّ له هذا الحديثَ فَكُلٌّ منهما ما ماتَ إلا تائبًا. وكِلا الحديثينِ صحيحٌ بلِ الحديثُ الثانِي متواترٌ[3]. وقد ذكرَ الإمامُ أبو الحسنِ الأشعريُّ أنَّ طلحةَ والزبيرَ مغفورٌ لهما لأجلِ البِشارةِ التي بشَّرَهُما رسولُ اللهِ بها

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦٦). قال الحاكم «حديث صحيح» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) فيض القدير (٦/ ٢١٨).

مع ثمانيةٍ ءاخرينَ في مجلسٍ واحدٍ فهذا مِنَ الإمامِ أبِي الحسنِ الأشعريّ إثباتٌ أنَّهُما أثِمَا. وكذلك قالَ في حقّ عائشةَ لأجلِ أنَّها مُبَشَّرةٌ أيضًا وكانتْ نَدِمَتْ نَدَمًا شديدًا مِنْ وُقوفِها في المقاتلينَ لِعَلِيّ حتى كانتْ حين تذكرُ سَيْرَها إلى البصرةِ ووقوفَها معَ المقاتلينَ لِعَلِيّ تَبْكِي بُكاءً شديدًا يَبْتَلُّ مِنْ دموعِها خِمارُها. وهذا متواترٌ أيضًا. وقالَ في غيرهِما مِنْ مُقاتِلِي عَلِيّ مِنْ أهلِ وقعةِ الْجَمَلِ ومِنْ أهلِ صِفّينَ الذينَ قاتلوا مع معاويةَ عليًّا «مُجَوَّزٌ غُفرانُهُ والعَفْوُ عنهُ» كما نقلَ ذلك الإمامُ أبو بكرِ بنُ فُورَكَ عن أبِي الحسن الأشعريّ في كتابِهِ مجرّد مقالاتِ الأشعريّ[1]، وابنُ فُورَكَ تلميذُ تلميذِ أبِي الحسنِ الأشعريّ وهو أبو الحسنِ الباهليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم. وما يظنُّ بعضُ الْجَهَلَةِ مِنْ أنَّ الولِيَّ لا يقعُ في معصيةٍ فهو جهلٌ فظيعٌ. فهؤلاءِ الثلاثةُ طلحةُ والزُّبَيْرُ وعائشةُ مِنْ أكابرِ الأولياءِ.

قالَ إمامُ الحرمينِ الجوينيُّ[2] «اتَّفَقَ الأُصوليُّونَ على أنَّ مَنْ نطقَ بكلمةِ الرّدّةِ - أيِ الكفرِ - وزعمَ أنَّهُ أضمرَ توريةً[3] كُفّرَ ظاهرًا وباطنًا» وأقرَّهُمْ على ذلك أيْ فلا ينفعُهُ التأويلُ البعيدُ كالذِي يقولُ [بعامّيّةِ بعضِ البلادِ] (يلعن رسول اللهِ) ويقولُ قصدِي برسولِ اللهِ الصواعقُ.

وقَدْ عَدَّ كثيرٌ مِنَ الفقهاءِ كالفقيهِ الْحَنَفِيّ بدرِ الرشيدِ[4] وهو

(١) مجرد مقالات الأشعري (ص/١٨٨).
(٢) عزاه في الزواجر إلى إمام الحرمين (١/ ٣٢).
(٣) أي أنه أراد به معنًى بعيدًا عن المعنى المتبادِر من الكلمة لا يحتمله اللفظ.
(٤) انظر رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات.

قريبٌ مِنَ القرنِ الثامنِ الهجريّ أشياءَ كثيرةً فينبغِي الاطّلاعُ عليها فإنَّ مَنْ لَمْ يعرفِ الشرَّ يقعُ فيه فَلْيُحْذَرْ، فقدْ ثَبَتَ عن أحدِ الصَّحابةِ أنَّهُ أخذَ لسانَهُ وخاطبَهُ يا لسانُ قُلْ خيرًا تَغْنَمْ، واسكُتْ عن شرّ تَسْلَمْ، مِنْ قبلِ أنْ تندمَ، إنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ «**أكثرُ خطايا ابنِ ءادمَ مِنْ لِسانِهِ**»[١]، ومِنْ هذهِ الخطايا الكفرُ والكبائرُ.

وفي حديثٍ ءاخرَ للرسولِ ﷺ «**إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمةِ ما يَتبيَّنُ فيها يهوِي بها في النارِ أبعدَ مِمَّا بينَ المشرقِ والمغربِ**» رواه البخارِيُّ ومسلمٌ مِنْ حديثِ أبِي هريرةَ[٢].

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/١٩٧) بإسنادٍ صحيحٍ من حديث عبدِ الله ابنِ مسعودٍ. قال الهيثمي «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، ومسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار.

فائدةٌ مهمةٌ

حكمُ مَنْ يأتِي بإحدى أنواعِ هذه الكفرياتِ هو أنْ تَحْبَطَ أعمالُهُ الصّالِحَةُ وحسناتُهُ جميعُها، فلا تُحْسَبُ له ذَرَّةٌ مِنْ حسنةٍ كان سبق له أنْ عملها مِنْ صدقةٍ أو حجّ أو صيامٍ أو صلاةٍ ونحوِها. إنما تُحسب له الحسناتُ الجديدةُ التي يقومُ بها بعدَ تجديدِ إيمانِهِ[1] قال تعالى ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[2].

وإذا قال أستغفرُ اللهَ قبلَ أن يُجددَ إيمانَهُ بقولِهِ أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسولُ اللهِ وهو على حالتِهِ هذه فلا يزيدُهُ قولُهُ أستغفرُ الله إلا إثمًا وكُفْرًا، لأنّه يكذّبُ قولَ اللهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[3]، وقولَهُ تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾[4].

رَوَى ابنُ حِبّانَ[5] عن عِمرانَ بنِ الْحُصَيْنِ أتى رسولَ اللهِ رجلٌ فقالَ يا محمدُ، عبدُ المطّلِبِ خيرٌ لقومِهِ منكَ كان يُطعمُهُمُ

(١) أي بعد دخوله في الإسلام من جديد.
(٢) سورة المائدة/الآية (٥).
(٣) سورة محمد/الآية (٣٤).
(٤) سورة النساء/الآية (١٦٨ - ١٦٩).
(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/١٢٨).

الكبدَ والسَّنَامَ وأنتَ تَنْحَرُهُمْ فقال رسولُ اللهِ ما شاءَ اللهُ(١) فلمَّا أرادَ أنْ ينصرفَ قالَ ما أقولُ، قالَ «**قُلِ اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نفسِي واعْزِمْ لِي على أرشدِ أمْرِي**» فانطلقَ الرَّجُلُ ولم يكنْ أسلمَ، ثُمَّ قالَ لرسولِ اللهِ إنّي أتيتُكَ فقلتُ فقلتَ عَلّمْنِي فقلتَ «**قُلِ اللهُمَّ قِنِي شرَّ نفسِي واعزِمْ لِي على أرشدِ أمرِي**» فما أقولُ الآنَ حينَ أسلمتُ قالَ «**قُلِ اللَّهُمَّ قِنِي شرَّ نفسِي واعزِمْ لِي على أرشدِ أمرِي اللَّهُمَّ اغفرْ لِي ما أسْرَرْتُ وما أعلنتُ وما عَمَدْتُ وما أخْطَأْتُ وما جَهِلْتُ**»(٢).

ومن أحكام الردة أنّ المرتد يفسد صيامُهُ وتيممُهُ ونكاحُهُ قبل الدخول وكذا بعده إن لم يرجع إلى الإسلام في العِدَّةِ، ولا يصح عقد نكاحه لا على مسلمة ولا كافرة ولو مرتدةً مثله.

عودٌ إلى تقسيمِ الكفرِ لزيادةِ فائدةٍ

واعلمْ أنَّ الكفرَ ثلاثةُ أبوابٍ إما تشبيهٌ، أو تكذيب، أو تعطيل.

أحدها التشبيه أي تشبيه الله بخلقه كمن يصفُهُ بالحدوث أو الفناءِ أو الجسمِ أو اللون أو الشكل أو الكمية أي مقدار الحجم أما ما ورد في الحديث(٣) «**إنّ الله جميلٌ**» فليس معناه جميلَ الشكل وإنما معناه جميلُ الصفاتِ أو مُحْسِنٌ.

---

(١) معناه رد عليه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه، وانظر شرح مسلم للنووي (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه.

ثانيها التكذيبُ أي تكذيب ما ورد في القرءان الكريم أو ما جاء به الرسول ﷺ على وجه ثابت وكان مما علم من الدين بالضرورة كاعتقاد فناء الجنة والنار، أو أنّ الجنّة لذاتٌ غير حسية وأنّ النار ءالام معنوية، أو إنكارِ بعث الأجساد والأرواح معًا أو إنكارِ وجوب الصلاة أو الصيام أو الزكاة، أو اعتقاد تحريم الطلاق أو تحليل الخمر وغيرِ ذلك مما ثبت بالقطع وظهر بين المسلمين.

وهذا بِخلافِ من يعتقد بوجوب الصلاة عليه مثلًا لكنّه لا يصلي فإنه يكون عاصيًا لا كافرًا كمن يعتقد عدمَ وجوبِها عليه.

ثالثها التعطيل أي نَفْيُ وجود الله وهو أشد الكفر.

وحكم من يشبه الله تعالى بخلقه التكفير قطعًا.

والسَّبِيلُ إلى صَرفِ التَّشبِيهِ اتباع هذه القاعدة القاطعة «مهما تصورتَ ببالك فالله بخلاف ذلك» وهي مجمع عليها عند أهل الحق وهي مأخوذة من قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١].

وملاحظةُ ما رُوِيَ عن الصديق [شعر من البسيط]

العجز عن درك الإدراك إدراكُ والبحث عن ذاته كفر وإشراكُ[٢]

وقولِ بعضِهِمْ لا يعرفُ اللهَ على الحقيقةِ إلا اللهُ تعالى.

ومعرفتُنا نحن بالله تعالى ليست على سبيل الإحاطة بل بمعرفة ما يجب لله تعالى كوجوب القِدَمِ له، وتنْزِيهِهِ عما

(١) سورة الشورى/الآية (١١).

(٢) أورده الفقيه المحدّث بدر الدين الزركشي الشافعي في تشنيف المسامع (٤/ ٨٠).

يستحيل عليه تعالى كاستحالة الشريك له وما يجوز في حقه تعالى كخلق شىء وتركه.

قال الإمام الرفاعيّ[(١)][(٢)] «غاية المعرفة بالله الإيقان بوجوده تعالى بلا كيف ولا مكان».

فائدةٌ

قال الغزالِيُّ في إحياءِ علومِ الدينِ[(٣)] «إنّه -أي اللهَ- أزلِيٌّ ليس لوجوده أولٌ وليس لوجوده ءاخر. وإنّه ليس بجوهر يتحيّزُ بل يتعالى ويتقدّس عن مناسبة الحوادث وإنّه ليس بجسم مؤلفٍ مِنْ جواهرَ، ولو جاز أن يُعتقد أنّ صانع العالَمِ جسم لجاز أن تعتقد الألوهية للشمس والقمر أو لشىء ءاخر من أقسام الأجسام فإذًا لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شىء بل هو الحيُّ القيّوم الذِي ليس كمثله شىء وأنّى يشبه المخلوق خالقه والمقدَّر[(٤)] مقدِّرَهُ والمصوَّر مصوِّرَهُ» اهـ

فليسَ هذَا الكلامَ الذي عابَه العلماءُ وإنّما عاب السلفُ كلامَ المبتدعة في الاعتقادِ كالمشبّهة والمعتزلة والخوارج وسائر الفرق

(١) الرفاعي هو أحمد بن أبي الحسن عليّ وكان ممن جمع بين العلم والعمل والزهد. كان فقيهًا محدثًا مفسرًا ألف تآليف منها كتاب شرح التنبيه في الفقه الشافعي وألف في الحديث أربعين حديثًا بالإسناد، توفي سنة خمسمائة وثمانٍ وسبعين. ألف في ترجمته الإمام أبو القاسم الرافعيّ تأليفًا سماه «سواد العينين في مناقب أبي العلمين».

(٢) كتاب الحكم (ص/٣٦).

(٣) إحياء علوم الدين (١/١٢٧ - ١٢٨).

(٤) الخلق المُقَدَّر أي له كمية هذا شكله مربّع وهذا شكله غير ذلك وهذا حارٌّ وهذا باردٌ.

التي شذّت عمّا كان عليه الرسول والصحابة الذين افترقوا إلى اثنتين وسبعين فرقةً كما أخبر الرسول بذلك في حديثه الصحيح الثابت الذي رواه ابن حبان[1] بإسناده إلى أَبِي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ «**افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة وهي الجماعة**» أي السواد الأعظم.

وأمّا علم الكلام الذي يشتغل به أهل السنّة من الأشاعرة والماتريدية فقد عُمل به من قَبْلِ الأشعريّ والماتريديّ كأَبِي حنيفة فإنّ له خمس رسائل في ذلك والإمامُ الشافعيّ كان يتقنه حتى إنَّه قال[2] «أتقنَّا ذاك قبل هذا»، أي أتقنّا علم الكلام قبل الفقه.

الوقايةُ مِنَ النَّارِ

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾[3]. وجاء في تفسير الآيةِ أنَّ الله يأمر المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهلهم النّار التي وقودها النّاس والحجارة بتعلُّم الأمور الدينية، وتعليم أهليهم ذلك[4]، أي معرفة ما فرض الله فعله أو اجتنابه أي الواجبات والمحرّمات

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٨/ ٤٨).
(٢) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٥٧).
(٣) سورة التحريم/الآية (٦).
(٤) جاء ذلك عن سيدنا علي بن أبي طالب بإسناد قوي فقد رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٤) وقال «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والبيهقي في المدخل إلى السنن (١/ ٣٣٧).

وذلك كي لا يقعَ في التشبيه والتمثيل والكفر والضّلال ذلك لأنّه من يُشَبّهُ اللهَ تعالى بشىءٍ ما لَمْ تَصِحَّ عبادته لأنَّه يعبد شيئًا تخيَّلَهُ وتوهَّمَهُ في مُخَيِلَتِهِ وأوهامِهِ، قال أبو حامدٍ الغزالي «لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود»[١].

ما جاء في بَدْءِ الخلق

قال رسول الله ﷺ عندما سئل عن بدء الأمر «**كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء، وكتَب في الذكر كل شىء، ثم خلق السمٰوات والأرض**» رواه البخاريّ[٢]. أجاب الرسولُ ﷺ على هذا السؤال بأنّ الله لا بداية لوجوده أي أزلِيٌّ ولا أزلِيَّ سواه وبعبارة أخرى ففي الأزل لم يكن إلا اللهُ تعالى، والله تعالى خالق كل شىء أي مُخرِجه من العدم إلى الوجود.

ومعنى خلق كل شىء أنه أخرج جميع الموجودات من العدم إلى الوجود.

والله تعالى حي لا يموت، لأنه لا نهاية لوجوده أي أبديّ، فلا يطرأ عليه العدم إذ لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم أي الأزلية.

وحكم من يقول (الله خلق الخلق فمن خلق اللهَ) التكفير قطعًا لأنّه نسب إلى الله تعالى العدم قبل الوجود،ولا يقال ذلك إلا في الحوادث أي المخلوقات، فالله تعالى واجبُ

---

(١) وقال الماوردي نحوه في أعلام النبوة (ص/٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم].

الوجود أي لا يتصور في العقل عدمه، فليس وجوده كوجودنا الحادث لأنّ وجودنا بإيجاده تعالى وكلُّ ما سوى الله جائز الوجود أي يمكن عقلًا وجوده بعد عدم وإعدامه بعد وجوده بالنّظر لذاته في حكم العقل.

واعلم أنّ أقسام الموجود ثلاثة

الأول أزلِيٌّ أبديٌّ وهو الله تعالى فقط أي لا بداية ولا نهاية لوجوده.

وحكم من يقول إن هناك شيئًا أزليًّا سوى الله التكفير قطعًا ولذلك كفرت الفلاسفة باعتقادهم السفيه أنّ العالم قديم أزليٌّ لأن الأزلية لا تصح إلا لله تعالى فقط.

والثانِي أبديٌّ لا أزلِيٌّ أي أنّ له بداية ولا نهاية له وهو الجنة والنار فهما مخلوقتان أي لهما بداية إلا أنّه لا نهاية لهما أي أبديتان فلا يطرأ عليهما خرابٌ أو فناءٌ لمشيئة الله بقاءَهما، أما من حيث ذاتهما فيجوز عليهما الفناء عقلًا.

والثالث لا أزليٌّ ولا أبديٌّ أي أنّ له بداية وله نهاية وهو كل ما في هذه الدُّنْيا من السمٰوات السبع والأرض فلا بد من فنائهما وفناء ما فيهما من إنس وجن وملائكة.

واعلم أنه جرت عادة العلماء على ذكر أنّ الحكم العقليّ ينقسم إلى ثلاثة الوجوب والاستحالة والجواز، وقالوا الواجب ما لا يُتصوَّر عدمه وهو الله وصفاته.

والمستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده، وقد يعبّرون عنه بالممتنع.

والجائز ما يتصور في العقل وجوده وعدمه ولذلك يصِفون الله بالواجب الوجود.

قدم الله ليس زمانيًّا

الله تعالى كان قبل الزمان وقبل المكان، وقبل الظلمات وقبل النور، فهو تعالى ليس من قبيل العالم الكثيف كالأرض والحجر والكواكب والنبات والإنسان، وليس من قبيل العالم اللطيف كالنور والروح والهواء والجنّ والملائكة لمخالفته للحوادث أي لمخالفته جميع المخلوقات.

فإن قيل أليس من أسمائه اللطيف فالجواب أنّ معنى اللطيف الذي هو اسم لله الرحيم بعباده أو الذي احتجب عن الأوهام فلا تدركه.

فلا نظير له تعالى أي لا مثيل له ولا شبيه في ذاته ولا في صفاته ولا في فعله، لأَنَّهُ لَو كانَ مُمَاثِلًا لمخلُوقَاتِه بوجه من الوجُوه كالحجمِ والحركةِ والسكونِ ونحوِ ذلك لَم يكُنْ خَالِقًا لَها.

فالله تعالى مُنَزَّهٌ عن الاتصاف بالحوادث وكذلك صفات الله تعالى هي قديمة أي أزلية. ولأهمية هذا البحث قال الإمام أبو حنيفة[١] «من قال بحدوث صفات الله أو شك أو توقف فهو كافر»، ذكره في كتاب الفقه الأكبر[٢].

---

(١) الفقه الأكبر بشرح القاري (ص/ ٤٧).

(٢) وهي إحْدَى رسائله الخمس التي هي ثابتة عنه كما ذكر ذلك الحافظ اللغوي مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (٢/ ١٣ - ١٤).

وقال الطحاويّ[١] «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر» اهـ

(١) العقيدة الطحاوية (ص/ ٥).

تنْزِيهُ اللهِ عن المكان
وتصحيح وجوده بلا مكان عقلًا

والله تعالى غنيٌّ عن العالمين أي مستغن عن كل ما سواه أزلًا وأبدًا فلا يحتاج إلى مكان يتحيز فيه أو شىء يحلّ به أو إلى جهة لأنّه ليس كشىء من الأشياء ليس حجمًا كثيفًا ولا حجمًا لطيفًا والتحيز من صفات الجسم الكثيف واللطيف فالجسم الكثيف والجسم اللطيف متحيز في جهة ومكان قال الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾(١) فأثبت الله تعالى لكل من الأربعة التحيز في فلكه وهو المدار.

ويكفِي في تَنْزِيهِ الله عن المكان والحيز والجهة قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) لأنه لو كان له مكان لكان له أمثال وأبعاد طول وعرض وعمق، ومن كان كذلك كان محدَثًا محتاجًا لمن حدّه بهذا الطول وبهذا العرض وبهذا العمق، هذا الدليل من القرءان.

أما من الحديث فما رواه البخاريّ وابن الجارود والبيهقيُّ(٣) بالإسناد الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال «**كان الله ولم يكن شىء غيره**»، ومعناه أنَّ الله لم يزل موجودًا في الأزل ليس معه غيره

---

(١) سورة الأنبياء/الآية (٣٣).

(٢) سورة الشورى/الآية (١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٣).

لا ماء ولا هواء ولا أرض ولا سماء ولا كرسيّ ولا عرش ولا إنس ولا جنّ ولا ملائكة ولا زمان ولا مكان ولا جهات فهو تعالى موجود قبل المكان بلا مكان، وهو الذي خلق المكان فليس بحاجة إليه، وهذا ما يستفاد من الحديث المذكور.

وقال البيهقيّ في كتابه «الأسماء والصفات»[١] «استدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبيّ ﷺ «**أنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء**»[٢] وإذا لم يكن فوقه شىء ولا دونه شىء لم يكن في مكان» اهـ

وهذا الحديث فيه الردّ أيضًا على القائلين بالجهة في حقه تعالى.

وقد قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان» رواه أبو منصور البغداديّ[٣].

وليس محور الاعتقاد على الوهم بل على ما يقتضيه العقل الصحيح السليم الذي هو شاهد للشرع، وذلك أنّ المحدود محتاج إلى من حَدَّهُ بذلك الحدّ فلا يكون إلٰهًا.

فكما صحّ وجود الله تعالى بلا مكان وجهة قبل خلق الأماكن والجهات فكذلك يصح وجوده بعد خلق الأماكن بلا مكان وجهة وهذا لا يكون نفيًا لوجوده تعالى كما زعمت المشبهة والوهابية وهم الدعاة إلى التجسيم في هذا العصر.

---

(١) الأسماء والصفات (ص/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٣) الفرق بين الفرق (ص/ ٣٣٣).

وحكم من يقول (إنّ الله تعالى في كل مكان أو في جميع الأماكن) التكفير إذا كان يفهم من هذه العبارة أنّ الله بذاته مُنْبَثٌّ أو حال في الأماكن، أما إذا كان يفهم من هذه العبارة أنه تعالى مسيطر على كل شيء وعالم بكل شيء فلا يكفر، وهذا قصد كثير ممن يلهج بهاتين الكلمتين، ويجب النهي عنهما على كل حال لأنهما ليستا صادرتين عن السلف بل عن المعتزلة ثم استعملهما جهلة العوامّ.

ونرفع الأيديَ في الدعاء للسماء لأنها مهبط الرحمات والبركات وليس لأنّ الله موجود بذاته في السماء، كما أننا نستقبل الكعبة الشريفة في الصلاة لأنّ الله تعالى أمرنا بذلك وليس لأنّ لها ميزة وخصوصية بسكنى الله فيها.

ويكفر من يعتقد التحيُّز لله تعالى أو يعتقد أنّ الله شيء كالهواء أو كالنُّور يملأ مكانًا أو غرفةً أو مسجدًا. ويُردّ على المعتقِدِين أنّ الله متحيّز في جهة العُلْوِ ويقولون لذلك تُرفع الأيدي عند الدعاء بِما ثبت عن الرسول ﷺ(١) أنّه استسقى أي طلب المطر وجعل بطن كفيه إلى الأرض وظاهرهما إلى السماء وبأنّه ﷺ نهى(٢) المصليَ أن يرفع رأسه إلى السماء، ولو كان الله متحيّزًا في جهة العلو كما تظنّ المشبّهة ما نَهانا عن رفع أبصارنا في الصلاة إلى السماء، وبأنّه ﷺ كان يرفع إصبعه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة.

المسبّحة[١] عند قول «إلا الله» في التحيات ويحنيها قليلًا فلو كان الأمر كما تقول المشبهة ما كان يحنيها بل يرفعها إلى السماء وكل هذا ثابت حديثًا عند المحدّثين فماذا تفعل المشبّهة والوهابية. ونُسمّي المساجد بيوت الله لا لأنّ الله يسكنها بل لأنها أماكن معدّة لذكر الله وعبادته، ويقال في العرش إنّه جِرم أعدّه الله ليطوف به الملائكة كما يطوف المؤمنون في الأرض بالكعبة.

وكذلك يكفر من يقول (الله يسكن قلوب أوليائه) إن كان يفهم منه الحلول.

وليس المقصود بالمعراج وصول الرسول ﷺ إلى مكانٍ ينتهي وجود الله تعالى إليه ويكفر من اعتقد ذلك إنّما القصد من المعراج هو تشريف الرسول ﷺ بإطلاعه على عجائب في العالم العلويّ وتعظيمُ مكانته ورؤيتُه للذات المقدّس بفؤاده من غير أن يكون الذات في مكان وإنّما المكان للرسول.

وأما قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[٢] فالمقصود بهذه الآية جبريل عليه السلام[٣] حيث رءاه الرسول ﷺ بمكّة بمكان يقال له أجياد وله ستمائة جناح سادًّا عظمُ خلقه ما بين الأفق كما رءاه مرّة أخرى عند سدرة المنتهى كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٢).
(٢) سورة النجم/الآية (٨ - ٩).
(٣) فتح الباري (١/ ٢٣).

ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[١].

وأمّا ما في مسلم[٢] من أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله عن جارية له قال قلت يا رسول الله أفلا أُعتقُها، قال «**ائتني بها**» فأتاه بها فقال لها «**أين الله**» قالت في السماء، قال «**من أنا**» قالت أنت رسول الله، قال «**أعتقها فإنّها مؤمنة**» اهـ فليس بصحيحٍ لأمرين للاضطراب لأنّه رُوي بهذا اللفظ وبلفظ[٣] «**من ربكِ**» فقالت الله وبلفظ «**أين الله**» فأشارت إلى السماء، وبلفظ[٤] «**أتشهدين أن لا إله إلّا الله**» قالت نعم، قال «**أتشهدين أنّي رسول الله**» قالت نعم.

والأمر الثانِي أنّ رواية أين الله مخالفة للأصول لأنّ من أصول الشريعة أنّ الشخص لا يحكم له بقول الله في السماء بالإسلام لأنّ هذا القول مشتَرك بين اليهود والنصارى وغيرهم وإنّما الأصل المعروف في شريعة الله ما جاء في الحديث المتواتر[٥] «**أمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله**»[٦].

ولفظ رواية مالك[٧] «**أتشهدين**» موافق للأصول.

---

(١) سورة النجم/الآية (١٣ - ١٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة.
(٣) رواه النسائي في سننه كتاب الوصايا باب فضل الصدقة عن الميت.
(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٨٨).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [سورة التوبة/الآية ٥].
(٦) رواه خمسة عشر صحابيًّا.
(٧) الموطأ (ص/ ٦٦٦).

فإن قيل كيف تكون رواية مسلم «**أين الله**» فقالت في السماء إلى ءاخره مردودةً مع إخراج مسلم لها في كتابه وكل ما رواه مسلم موسوم بالصحة، فالجواب أنّ عددًا من أحاديث مسلم ردّها علماء الحديث وذكرها المحدّثون في كتبهم كحديث أنّ الرسولَ قال لرجل[١] «**إنّ أبي وأباك في النّار**»، وحديثِ[٢] إنّه يعطى كل مسلم يوم القيامة فداءً له من اليهود والنصارى، وكذلك حديث أنس[٣] «صليت خلف رسول الله وأبِي بكر وعمر فكانوا لا يذكرون بسم الله الرحمٰن الرحيم». فأما الأول فضعّفه الحافظ السيوطيّ[٤]، والثانِي ردَّه البخاريّ[٥]، والثالث ضعّفه الشافعيّ وعدد من الحفّاظ[٦].

فهذا الحديث على ظاهره باطل لمعارضته الحديث المتواتر المذكور وما خالف المتواتر فهو باطل إن لم يقبل التأويل. اتفق على ذلك المحدّثون والأصوليون، لكن بعض العلماء أوّلوه على هذا الوجه قالوا معنى أين الله سؤال عن تعظيمها لله وقولها في السماء عالِي القدر جدًّا أمّا أخذه على ظاهره من أنّ الله ساكنٌ السماءَ فهو باطل مردود لما تقرر في علم مصطلح الحديث أن ما خالف المتواتر باطل إن لم يقبل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة.
(٤) الحاوي للفتاوى (٢/ ٣٩٣).
(٥) فتح الباري (١١/ ٣٩٨).
(٦) السنن الكبرى (٢/ ٥٢).

التأويل فإن ظاهرَه ظاهرُ الفساد فإنّ ظاهره أنّ الكافر إذا قال الله في السماء يحكم له بالإيمان.

وحمل المشبّهة رواية مسلم على ظاهرها فضلُّوا ولا ينجيهم من الضلال قولهم إننا نحمل كلمة في السماء بمعنى إنّه فوق العرش لأنّهم يكونون بذلك أثبتوا له مثلًا وهو الكتاب الذِي كتب الله فيه «**إنَّ رحمتي سبقت غضبي**»(١) فوق العرش فيكونون أثبتوا المماثلة بين الله وبين ذلك الكتاب لأنّهم جعلوا الله وذلك الكتاب مستقرَّين فوق العرش فيكونون كذّبوا قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) وهذا الحديث رواه ابن حبّان بلفظ(٣) «**مرفوعٌ فوق العرش**»، وأمّا رواية البخاريّ فهي(٤) **موضوعٌ فوق العرش**، وقد حمل بعض الناس فوق بمعنى تحت وهو مردود برواية ابن حبان «**مرفوع فوق العرش**» فإنّه لا يصح تأويل فوق فيه بتحتٍ. ثم على اعتقادهم هذا يلزم أن يكون الله محاذيًا للعرش بقدر العرش أو أوسع منه أو أصغر، وكل ما جرى عليه التقدير حادث محتاج إلى من جعله على ذلك المقدار، والعرشُ لا مناسبةَ بينَهُ وبينَ اللهِ كما أنّه لا مناسبة بينه وبين شىء من خلقه، ولا يتشرّف الله بشىء من خلقه ولا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة البروج].

(٢) سورة الشورى/الآية (١١).

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٨/ ٥).

(٤) رواية البخاري بلفظ «**وضع عنده على العرش**»، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٣/ ٣٨٥) «وضع بفتح فسكون أي موضوع ووقع كذلك في الجمع للحُميدي بلفظ موضوع وهي رواية الإسماعيلي».

ينتفع بشيء من خلقه. وقول المشبهة الله قاعد على العرش شتم لله لأنّ القعود من صفة البشر والبهائم والجنّ والحشرات وكلٌّ وصف من صفات المخلوق وَصْفُ اللهِ به شَتْمٌ له، قال الحافظ الفقيه اللغويّ مرتضى الزبيديّ[(١)] «من جعل الله تعالى مقدَّرًا بمقدار كفر» أي لأنّه جعله ذا كمية وحجم والحجم والكمية من موجبات الحدوث، وهل عرفنا أنّ الشمس حادثة مخلوقة من جهة العقل إلا لأنّ لها حجمًا ولو كان لله تعالى حجم لكان مثلًا للشمس في الحجمية ولو كان كذلك ما كان يستحقّ الألوهيّة كما أنّ الشمس لا تستحقّ الألوهية. فلو طالب هؤلاء المشبهةَ عابدُ الشمس بدليل عقليّ على استحقاق الله الألوهية وعدم استحقاق الشمس الألوهية لم يكن عندهم دليل وغاية ما يستطيعون أن يقولوا قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٢)]، فإن قالوا ذلك لعابد الشمس يقول لهم عابد الشمس أنا لا أؤمن بكتابكم أعطونِي دليلًا عقليًّا على أنّ الشمس لا تستحق الألوهية فهنا ينقطعون.

فلا يوجد فوق العرش شيء حيٌّ يسكنه إنما يوجد كتاب فوق العرش مكتوب فيه «**إنّ رحمتِي سبقت غضبِي**» أي أنّ مظاهر الرحمة أكثر من مظاهر الغضب، الملائكة من مظاهر الرحمة وهم أكثر عددًا من قطرات الأمطار وأوراق الأشجار، والجنة من مظاهر الرحمة وهي أكبر من جهنم بآلاف المرات.

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١٠٩).
(٢) سورة الرعد/الآية (١٦).

وكون ذلك الكتاب فوق العرش ثابت أخرج حديثه البخاريّ والنسائيّ في السنن الكبرى وغيرهما[١]، ولفظ رواية ابن حبان[٢] «**لما خلق الله الخلق كتب في كتاب يكتبه على نفسه**[٣] **وهو مرفوع فوق العرش إنّ رحمتي تغلب غضبِي**».

فإن حاول محاولٌ أن يأول «**فوق**» بمعنى دون قيل له تأويل النصوص لا يجوز إلا بدليل نقليّ ثابت أو عقلي قاطع وليس عندهم شىء من هذين، ولا دليلَ على لزوم التأويل في هذا الحديث، كيف وقد قال بعض العلماء إنّ اللوح المحفوظ فوق العرش لأنّه لم يرد نص صريح بأنّه فوق العرش ولا بأنّه تحت العرش فبقي الأمر على الاحتمال أي احتمال أنّ اللوح المحفوظ فوق العرش واحتمال أنّه تحت العرش، فعلى قوله إنّه فوق العرش يكون جعل اللوح المحفوظ معادلًا لله أي أن يكون الله بمحاذاة قسم من العرش واللوح بمحاذاة قسم من العرش وهذا تشبيه له بخلقه لأنّ محاذاة شىء لشىء من صفات المخلوق.

ومما يدل على أنَّ ذلك الكتاب فوق العرش فوقية حقيقية لا تحتمل التأويل الحديث الذي رواه النسائيّ في السنن الكبرى[٤] «**إنّ الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السمٰوات والأرضَ بألفَيْ سنة فهو عنده على العرش وإنه أنزل من ذلك الكتاب ءايتين ختم بهما سورة البقرة**»،

(١) تقدم تخريج البخاري، وأما النسائي فقد رواه في السنن الكبرى كتاب النعوت باب ٥١ و٥٢، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٨).
(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٨/ ٥).
(٣) معناه وَعَدَ.
(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة باب ٢٢٨ .

وفي لفظ لِمُسْلِمٍ[١] «**فهو موضوع عنده**» فهذا صريح في أن ذلك الكتاب فوق العرش فوقية حقيقية لا تحتمل التأويل.

وكلمة «**عند**» للتشريف ليس لإثبات تحيز الله فوق العرش لأن «عند» تستعمل لغير المكان قال الله تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[٢] إنما تدل ﴿عِندَ﴾ هنا أنّ ذلك بعلم الله وليس المعنى أنّ تلك الحجارة مجاورة لله تعالى في المكان. فمن يحتجّ بمجرد كلمة عند لإثبات المكان والتقارب بين الله وبين خلقه فهو من أجهل الجاهلين، وهل يقول عاقل إنّ تلك الحجارة التي أنزلها الله على أولئك الكفرة نزلت من العرش إليهم وكانت مكوّمة بمكان في جنب الله فوق العرش.

وقد روى البخاريُّ[٣] أنّ النبيَّ ﷺ قال «**إذا كان أحدكم في صلاته فإنه يناجِي ربه فلا يبصقنّ في قِبلته ولا عن يمينه فإنّ ربه بينه وبين قِبلته**» اهـ وهذا الحديثُ أقوى إسنادًا من حديث الجارية.

وأخرج البخاريّ[٤] أيضًا عن أبِي موسى الأشعريّ أن رسول الله ﷺ قال «**اربَعوا على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنّكم تدعون سميعًا قريبًا والذِي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم**» اهـ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله.

(٢) سورة هود/الآية (٨٢ - ٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير.

فيقال للمعترض إذا أخذت حديث الجارية على ظاهره وهذين الحديثين على ظاهرهما بطل زعمك أنّ الله في السماء وإن أوّلتَ هذين الحديثين ولم تأول حديث الجارية فهذا تحكّم أي قول بلا دليل، ويصدق عليك قول الله في اليهود ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[١].

وكذلك ماذا تقول في قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٢] فإن أوّلته فلم لا تؤول حديث الجارية. وقد جاء في تفسير هذه الآية عن مجاهد تلميذ ابن عباس[٣] «قِبلة الله»، ففسر الوجه بالقِبلة أي لصلاة النفل في السفر على الراحلة.

وأمّا الحديث الذي رواه الترمذيّ[٤] وهو «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء**»، وفي رواية أخرى[٥] «**يرحمكم أهل السماء**»، فهذه الرواية تفسّر الرواية الأولى لأنّ خير ما يفسّر به الحديث الوارد بالوارد كما قال الحافظ العراقيّ في ألفيَّته وخير ما فسّرته بالواردِ.

ثم المرادُ بأهل السماء الملائكةُ، ذكر ذلك الحافظ العراقيُّ في أماليّه عقيب هذا الحديث ونصُّ عبارته[٦] «واستُدل بقوله «أهل السماء» على أن المراد بقوله مَن فِي السماء الملائكة» اهـ

(١) سورة البقرة/ الآية (٨٥).
(٢) سورة البقرة/ الآية (١١٥).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٥٠٤ - ٥٠٥).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة عن رسول الله باب ما جاء في رحمة الناس. وقال «هذا حديث حسن صحيح».
(٥) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٠).
(٦) انظر المجلس السادس والثمانين من أمالي العراقي (ص/ ٧٧).

لأنّه لا يقال لله «أهل السماء». و«مَنْ» تصلح للمفرد وللجمع فلا حجة لهم في الآية ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾[١]، ويقال مثل ذلك في الآية التي تليها وهي ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾[٢] فمَن في هذه الآية أيضًا أهل السماء، فإنّ الله يسلّط على الكفّار الملائكة إذا أراد أن يحلّ عليهم عقوبته في الدُّنْيا كما أنّهم في الآخرة هم الموكَّلون بتسليط العقوبة على الكفّار لأنّهم خزنة جهنّم وهم يجرُّون عنقًا من جهنّم إلى الموقف ليرتاع الكفّار برؤيته. وتلك الرواية التي أوردها الحافظ العراقيّ في أماليّه لفظها «**الرَّاحمون يرحمهم الرحيم ارحموا أهل الأرض يرحمْكم أهل السماء**».

ثم لو كان الله ساكنَ السماء كما يزعم البعض لكان الله يزاحم الملائكةَ وهذا محال، فقد ثبت حديث[٣] أنّه «**ما في السمٰوات موضع أربع أصابع**» وفي لفظ[٤] «**شبرٍ**» «**إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد**».

وكذلك الحديث الذِي رواه البخاريُّ ومسلم[٥] عن أَبِي سعيد الخدريّ أنّ الرسول ﷺ قال «**ألا تأمنونِي وأنا أمين من في السماء**

---

(١) سورة الملك/الآية (١٦).

(٢) سورة الملك/الآية (١٧).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الزهد باب في قول النبي لو تعلمون ما أعلم. وقال «هذا حديث حسن غريب».

(٤) رواه البزار في مسنده (٨/ ١٧٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

يأتيني خبر من في السماء صباحَ مساءَ» فالمقصود به الملائكة أيضًا وإنْ أريد به الله فمعناه الذي هو رفيع القدر جدًّا.

وأمّا حديث[١] زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ أنّها كانت تقول لنساء الرسول ﷺ «زوّجكنّ أهاليكنّ وزوجني الله من فوق سبع سمٰوات» فمعناه أنَّ تَزَوُّجَ النبيّ ﷺ بِها مُسَجَّلٌ في اللوح المحفوظ وهذه كتابة خاصّة بزينب ليست الكتابة العامّة، الكتابة العامّة لكلّ شخص فكل زواج يحصل إلى نهاية الدُّنْيا مسجّلٌ، واللوح فوق السمٰوات السبع.

وأمّا الحديث الذِي فِيه[٢] «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبَى عليه إلَّا كان الذي في السماء ساخطًا عليها**» الحدِيث، فيحمل أيضًا على الملائكة بدليل الرواية الثانية الصحيحة والتي هي أشهر من هذه وهي «**لعنتها الملائكة حتى تصبح**» رواها ابن حبّان وغيره[٣].

وأمّا حديث أبِي الدرداء[٤] أنّ النبي ﷺ قال «**ربَّنا الذي في السماء تقدّس اسمك**» فلم يصح بل هو ضعيف كما حكم عليه الحافظ ابن الجوزيّ، ولو صحّ فأمره كما مرّ في حديث الجارية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها.
(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة، وابن حبان في صحيحه انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان (٦/ ١٨٧).
(٤) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطب باب كيف الرقى.

وأما حديث جبير بن مُطعِم[١] عن النبي ﷺ «**إنّ الله على عرشه فوق سمٰواتِهِ، وسمٰواتُهُ فوق أراضيه مثلُ القُبَّة**» فلم يدخلْه البخاريّ في الصحيح فلا حجّة فيه، وفي إسناده من هو ضعيف لا يحتجّ به[٢] ذكره ابن الجوزيّ وغيرُهُ[٣].

وكذلك ما رواه في كتابه «خلق أفعال العباد»[٤] عن ابن عبّاس أنّه قال «لما كلم الله موسى كان نداؤه في السماء وكان الله في السماء»، فهو غير ثابت فلا يحتج به[٥].

وأما القول المنسوب لمالك وهو قول «الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء» فهو غير ثابت أيضًا عن مالك[٦]، وأبو داود لم يسنده إليه بالإسناد الصحيح بل ذكره في كتابه المسائل[٧] ومجرّد الرواية لا يكون إثباتًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في الجهمية.

(٢) ذكره ابن الجوزي في كتابه دفع شبه التشبيه (ص/٢٦٦) وقال «تفرد بروايته محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة وكلاهما لا يُحتج به».

(٣) قال البيهقي في الأسماء والصفات (ص/٤١٨) «كان مالك بن أنس لا يرضاه ويحيى بن سعيد القطان لا يروي عنه ويحيى بن معين يقول ليس بحجة».

(٤) خلق أفعال العباد (ص/٤١).

(٥) البخاريُّ لم يلتَزم أنْ لا يذكر إلا الصحيحَ في هذا الكتاب، لذلك لا يُكتَفى لتصحيح الحديث بمجرّد ذِكرِه فيه.

(٦) ذكره ابن جماعة في كتابه إيضاح الدليل (ص/٨٢) وقال فيه «قال أحمد بن حنبل عبد الله بن نافع لم يكن صاحب حديث وكان ضعيفًا فيه».

(٧) مسائل الإمام أحمد (ص/٢٦٣).

صفات الله الثلاث عشرة

جرت عادة العلماء المؤلفين في العقيدة من المتأخرين(١) على قولهم إنّ الواجب العينيَّ المفروض على كلّ مكلّف أي البالغ العاقل أن يعرف من صفات الله ثلاث عشرة صفة الوجودَ والقدمَ والمخالفةَ للحوادث والوحدانيةَ والقيامَ بنفسه والبقاء والقدرة والإرادة والحياة والعلم والكلامَ والسمعَ والبصرَ وإنّه يستحيل على الله ما ينافِي هذه الصفات.

ولما كانت هذه الصفات ذكرت كثيرًا في النصوص الشرعية قال العلماء(٢) يجب معرفتها وجوبًا عينيًّا أي على كل مكلف بعينه، وقال بعضهم(٣) بوجوب معرفة عشرين صفة، فزادوا سبع صفات معنوية قالوا وكونُهُ تعالى قادرًا ومريدًا وحيًّا وعالِمًا ومتكلمًا وسميعًا وبصيرًا، والطريقة الأولى هي الراجحة.

الوجودُ

اعلَم رحمكَ اللهُ أنَّ اللهَ تعالى موجودٌ أزلًا وأبدًا فليسَ وجودُهُ تعالى بإيجادِ موجدٍ.

وقدِ استنكرَ بعضُ الناسِ قولَ «اللهُ موجودٌ» لكونِهِ على وزنِ مفعولٍ والجوابُ أنَّ مفعولًا قَد يُطلقُ على مَن لم يقعْ عليهِ فعلُ

(١) و(٢) ذكر ذلك عبد المجيد الشرنوبي في شرح تائية السلوك (ص/ ٦٠)، وأبو بكر الدمياطي في كتابه إعانة الطالبين (١/ ٢٥).

(٣) قاله الفضالي الشافعي في كتابه كفاية العوام، انظر حاشية البيجوري على الكفاية (ص/ ٢٥).

الغيرِ كما نقولُ اللهُ معبودٌ وهؤلاءِ ظنوا بأنفسهم أنَّ لهم نصيبًا في علمِ اللغة وليسوا كما ظنّوا.

قالَ اللغويُّ الكبيرُ شارحُ القاموسِ الزَّبِيديُّ في شرحِ الإحياءِ ما نصّهُ[١] «والبارئُ تعالى موجودٌ فصحَّ أن يُرَى».

وقالَ الفيّوميُّ اللغويُّ صاحبُ المصباح[٢] «الموجودُ خلافُ المعدومِ».

القِدَمُ

يجبُ للهِ القِدمُ بمعنى الأزليةِ لا بمعنى تقادُمِ العهدِ والزَّمَنِ لأنَّ لفظَ القديمِ والأزلِيّ إذا أُطلِقا على اللهِ كانَ المعنى أنهُ لا بدايةَ لوجودهِ، فيُقالُ اللهُ أزليٌّ، اللهُ قديمٌ، وإذا أُطلِقا على المخلوقِ كانا بمعنى تقادُمِ العهدِ والزمنِ، قالَ اللهُ تعالى في القمرِ ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾[٣]، وقالَ صاحبُ القاموسِ الفيروزاباديُّ[٤] «الهرمانِ بناءانِ أزليانِ بمصرَ».

وأما برهانُ قدَمهِ تعالى فهوَ أنهُ لو لم يكُن قديمًا للزِمَ حدوثُهُ فيفتَقِرُ إلى محدِثٍ فيلزمُ الدَّورُ أو التسلسلُ وكلٌّ منهما محالٌ، فثبتَ أنَّ حدوثَهُ تعالى محالٌ وقِدَمهُ ثابتٌ.

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١١٩).
(٢) المصباح المنير (ص/ ٢٤٨).
(٣) سورة يس/الآية (٣٩).
(٤) القاموس المحيط (ص/ ١٥٠٩).

البَقَاءُ

يَجبُ البقاءُ لله تعالى بمعنَى أنّهُ لا يلحقُهُ فناءٌ، لأنّه لمَّا ثبتَ وجوبُ قِدَمِه تعالى عَقلًا وجبَ لهُ البقاءُ لأنّهُ لو أَمْكَنَ أنْ يلحقَهُ العدَمُ لانتفَى عنهُ القِدمُ، فهوَ تَبارَكَ وتَعالى الباقي لِذاتِهِ لا باقيَ لذاتِهِ غيرُهُ، وأمّا الجنّةُ والنارُ فبقاؤهما ليسَ بالذّاتِ بل لأنَّ الله شاءَ لهما البقاء، فالجنّةُ باعتبارِ ذاتِهَا يجوزُ عليها الفناءُ وكذلكَ النّارُ باعتبارِ ذاتِها يجوزُ عليها الفناءُ.

السَّمْعُ

وَهُوَ صِفَةٌ أزَلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِذَاتِ الله. فَهُو يَسْمَعُ الأصوات بِسَمْعٍ أزَلِيّ أبدِيّ لا كسَمْعِنا، لَيْسَ بأُذُنٍ وصِمَاخٍ، فَهُو تَعالى لا يَعْزُبُ أي لا يَغيبُ عن سَمْعِهِ مَسْمُوعٌ وإنْ خَفِيَ أي علينا وبَعُدَ أي عنّا كما يَعْلَمُ بِغيْرِ قلبٍ.

ودَلِيلُ وجُوبِ السَّمْع لهُ عَقْلًا أنَّه لَو لَم يكن مُتَّصِفًا بالسَّمْع لَكانَ مُتَّصِفًا بالصَّمَم وهُو نَقْصٌ على الله والنّقْصُ عليهِ مُحَالٌ، فمنْ قَال إنَّه يَسْمَعُ بأذُنٍ فَقَدْ أَلْحدَ وكَفَرَ.

البَصَرُ

يَجبُ لله تعالى عَقْلًا البَصَرُ أي الرُّؤْيةُ، فَهُو يَرى بِرُؤْيةٍ أزَلِيَّةٍ أبدِيّةٍ الْمَرْئِيّاتِ جَمِيْعَها فيَرَى ذَاتَه بِغَيْرِ حَدَقَةٍ وجَارِحَةٍ لأَنَّ الحَوَاسَّ منْ صِفَاتِ المخلوقينَ.

والدَّلِيلُ عَلى ثُبُوتِ البَصَر لَهُ عَقْلًا أَنَّهُ لَو لَم يكُنْ بَصِيرًا رَائِيًا

لَكَانَ أَعْمَى، والعَمَى أَيْ عَدَمُ الرُّؤْيةِ نَقْصٌ على الله، والنَّقْصُ عَلَيْه مُسْتَحِيلٌ.

ودَلِيْلُ السَّمْعِ والبَصَرِ السَّمْعِيُّ الآياتُ والأَحَادِيثُ كَقَولِه تَعَالى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، وقَوْلِه ﷺ في تَعْدَادِ أَسْمَاءِ الله الحُسْنَى «**السَّمِيعُ البَصِيرُ**» وهُوَ في حَدِيثٍ أَخْرجَهُ التّرْمِذِيُّ وصححه ابن حبان[2].

الكَلامُ

الكلامُ هُو صفةٌ أزليّةٌ أبديّةٌ هو مُتكلِمٌ بها ءامِرٌ نَاهٍ وَاعدٌ مُتوعّدٌ ليس ككلامِ غيره بل أزليٌّ بأزليَّةِ الذّاتِ لا يُشبه كلامَ الخَلْقِ وليس بِصوتٍ يَحدُثُ من انسلالِ الهواء أو اصطكاكِ الأَجرامِ ولا بِحرفٍ يَنْقَطِعُ بإطباقِ شَفةٍ أو تَحريكِ لِسانٍ.

ونعتقدُ أنَّ موسى سَمِعَ كلام الله الأزليَّ بغير حَرفٍ ولا صَوتٍ كما يرى المؤمنون ذات الله في الآخرةِ من غير أن يكون جوهرًا ولا عَرَضًا لأنَّ العقلَ لا يُحِيلُ سَماعَ ما ليس بحرفٍ ولا صوتٍ.

وكلامُهُ تعالى الذَّاتيُّ ليس حروفًا متعاقبةً ككلامِنا، وإذَا قرأ القارئُ منَّا كلام الله فقراءتُه حرفٌ وصوتٌ ليست أزليّةً.

---

(١) سورة الشورى/الآية (١١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات باب ما جاء في عقد التسبيح باليد. وقال «هذا حديث غريب» وقال «ولا نعلم في كثير شىء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث»، وصححه ابن حبان، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان كتاب الرقائق باب الأذكار (٢/٨٨ - ٨٩).

وقد نُقِلَ هذا التفصيلُ عن أَبِي حنيفةَ رضي الله عنه وهو من السلفِ أدركَ شيئًا من المائةِ الأولى ثم توفيَ سنة مائةٍ وخمسينَ هِجْرية قال[١] «والله يتكلمُ لا بآلةٍ وحرفٍ ونحن نتكلم بآلةٍ وحرفٍ» فليُفهم ذلكَ. وليسَ الأمرُ كما تقولُ المشبهةُ بأن السلفَ ما كانوا يقولون بأن الله متكلمٌ بكلامٍ ليسَ بحرفٍ وإنما هذا بدعةُ الأشاعرة وهذا الكلامُ من أَبِي حنيفة ثابتٌ ذكرهُ في إحدى رسائِله الخمسِ.

والقُرْءانُ لَهُ إطْلاقَانِ يُطْلَقُ علَى اللّفْظِ الْمُنـزَّلِ على محمدٍ وعلَى الكَلام الذَّاتيّ الأزلِيّ الذي لَيْسَ هُوَ بِحَرْفٍ ولا صَوْتٍ ولا لُغَةٍ عَربيَّةٍ ولا غَيْرِها. فَإن قُصِدَ بهِ الكَلامُ الذَّاتيُّ فهو أزلِيٌّ ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، وإن قُصدَ به وبسائرِ الكتبِ السماوية اللّفْظُ الْمُنَزَّلُ فمنه ما هو باللغةِ العِبْرِيَّةِ ومنهُ ما هو باللغةِ السُّريانيةِ وهذه اللغاتُ وغيرُها من اللغاتِ لم تكن موجودةً فخلقَهَا الله تعالى فَصَارت موجودةً والله تعالى كانَ قبلَ كلّ شيءٍ، وكانَ متكلمًا قبلَها ولم يزل متكلمًا وكلامه الذِي هو صفتُهُ أزلِيٌّ أبديٌّ وهو كلام واحد وهذهِ الكتبُ الْمُنْزَلَةُ كُلُّها عباراتٌ عن ذلكَ الكلامِ الذاتيّ الأزلِيّ الأبديّ ولا يلزمُ من كونِ العبارةِ حادثةً كونُ المعبَّرِ عنه حادثًا ألا تَرَى أننا إذا كَتَبنَا على لوحٍ أو جدارٍ «الله» فقيلَ هذا الله فهل معنَى هذا أن أشكالَ الحروفِ المرسومة هي ذاتُ الله لا يتوهَّمُ هذا عاقلٌ إنّما يُفهمُ من ذلكَ أن هذه الحروف عبارةٌ عن الإلهِ الذي هو

(١) الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري (ص/٥٨).

موجودٌ معبودٌ خالقٌ لكلّ شيءٍ ومعَ هذا لا يقالُ القرءانُ وغيرُه من الكتب المنزلة مخلوقٌ لكن يُبَيَّن في مقام التَّعليم أن اللفظَ المنَزَّلَ ليسَ قائمًا بذاتِ الله بل هو مخلوقٌ لله لأنه حروفٌ يسبِقُ بعضُها بعضًا وما كانَ كذلك حادثٌ مخلوقٌ قطعًا. لكِنّه لَيْسَ مِنْ تصنِيفِ مَلَكٍ ولا بَشَرٍ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَن الكَلامِ الذَاتيّ الذي لا يُوصفُ بأنَّه عَرَبِيٌّ ولا بأَنّهُ عِبْرانِيٌّ ولا بِأَنَّهُ سُرْيَانِيٌّ وكُلٌّ يُطْلَق علَيْهِ كَلامُ الله، أيْ أنَّ صِفَةَ الكَلامِ القَائِمَةَ بذَاتِ الله يُقالُ لَها كَلامُ الله، واللّفْظ الْمُنَزَّل الذي هُو عِبَارَةٌ عَنْهُ يقَالُ لَه كَلامُ الله.

والإطلاقانِ من بَابِ الحَقِيقَةِ لأنَّ الحَقِيقَةَ إِمَّا لُغَوِيَّةٌ وإِمّا شَرْعِيَّةٌ وإمَّا عُرْفِيَّةٌ. وإطلاق القرءان على اللفظ المنَزَّل حقيقةٌ شرعيةٌ فليعلم ذلك.

وتَقْريبُ ذَلِكَ كما تقدم أنَّ لَفْظَ الجَلالَةِ «الله» عِبَارَةٌ عن ذَاتٍ أزَليّ أبَدِيّ، فَإِذَا قُلْنَا نَعْبدُ الله فَذَلِكَ الذّاتُ هُوَ الْمَقْصُودُ، وإذَا كُتِبَ هذَا اللّفْظُ فقِيْلَ مَا هَذا؟ يُقَال الله بِمعنَى أنَّ هذِه الحُروفَ تَدُلُّ على ذلكَ الذّاتِ الأزَلِيّ الأبَدِيّ لا بمَعْنى أنَّ هذِهِ الحُروفَ هي الذَّاتُ الذي نَعبُدُهُ.

الإِرَادَةُ

اعْلَم أنَّ الإرادَةَ وهي المشِيْئَةُ واجبةٌ لله تَعالَى، وهي صِفَةٌ أَزلِيَّةٌ أبَديَّةٌ يُخَصّصُ الله بهَا الجَائِزَ العَقْليَّ بالوجُودِ بدَلَ العدَمِ، وبِصفَةٍ دُوْنَ أُخرَى وبِوَقتٍ دُوْنَ ءاخرَ.

وبُرْهَانُ وُجُوبِ الإرَادَةِ لله أَنَّه لَوْ لَم يَكُن مُرِيدًا لَم يُوْجَدْ شَىءٌ مِنْ هَذَا العَالَم، لأَنَّ العَالَم مُمْكنُ الوُجُودِ فَوُجُودُهُ لَيْسَ وَاجِبًا لِذَاتِه عَقْلًا والعَالَمُ مَوْجُودٌ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ مَا وُجِدَ إلا بتَخْصِيصِ مُخصّصٍ لوُجُودِهِ وتَرْجِيحِه لَهُ على عَدَمِه، فثَبتَ أَنَّ الله مُرِيْدٌ شَاءٍ.

ثُمَّ الإِرَادَةُ بِمَعْنَى الْمَشِيْئَةِ عِنْدَ أَهْلِ الحَقّ شَامِلَةٌ لأَعْمالِ العِبَادِ جَمِيعِها الخَيْرِ مِنْها والشَّرّ، فَكُلُّ مَا دَخَل في الوُجُود منْ أَعْمَالِ الشَّرّ والخَيْرِ ومِنْ كُفْرٍ أَو مَعَاصٍ أوْ طَاعَةٍ فَبمشِيئَةِ الله وقَعَ وحَصَلَ وهَذا كَمالٌ في حَقّ الله تَعَالَى لأَنَّ شُمُولَ القُدْرَةِ والْمَشِيئَةِ لائِقٌ بجَلالِ الله، لأَنَّهُ لَو كانَ يَقَعُ في مِلْكِهِ مَا لا يَشَاءُ لَكانَ ذَلِكَ دَلِيلَ العَجْزِ والعَجْزُ مُسْتَحِيلٌ علَى الله.

والْمَشِيئَةُ تَابِعَةٌ للعِلْم أَي أَنَّهُ مَا عَلِمَ حُدُوْثَهُ فَقَدْ شَاءَ حُدُوْثَهُ وَمَا عَلِمَ أنَّه لا يكُونُ لَم يَشَأْ أنْ يكُونَ.

ولَيْسَت الْمَشِيْئَةُ تَابِعَةً للأَمْرِ بِدَلَيْل أنَّ الله تَعَالى أمَرَ إبراهِيْمَ بذَبْحِ ولَدِهِ إسْماعيلَ ولَمْ يَشَأ لهُ ذَلِكَ.

فإِنْ قِيْلَ كَيْفَ يأمُرُ بما لَم يَشَأْ وقُوْعَهُ فَالجَوابُ أَنَّهُ قَدْ يأمُرُ بِمَا لم يَشَأ كَمَا أَنَّهُ عَلِمَ بوقُوْعِ شَىءٍ مِنَ العَبْدِ ونَهاهُ عنْ فِعْلِهِ.

القُدْرَةُ

يَجبُ لله تعالى القُدْرَةُ عَلى كُلّ شَىءٍ والْمُرَادُ بالشَّىءِ هُنَا الجَائِزُ العَقْلِيُّ فَخَرجَ بذَلِكَ الْمُسْتَحِيلُ العَقْلِيُّ لأنّه غَيْرُ قَابِلٍ للوُجُودِ فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِتَعَلُّقِ القُدْرَةِ، وخَالَفَ في

ذَلك ابنُ حَزْم فقالَ[1] «إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قادِرٌ أنْ يَتّخِذَ ولَدًا، إذْ لَوْ لم يَقْدِرْ عَلَيْه لكَانَ عَاجِزًا»، وهَذَا الذي قَالَهُ غَيْرُ لازِم لأَنَّ اتّخَاذَ الوَلَدِ مُحَالٌ عَلى الله والْمُحَالُ العَقْلِيُّ لا يَدْخُلُ تَحْتَ القُدْرةِ، وعَدَمُ تَعَلُّقِ القُدْرةِ بالشَّىءِ تَارَةً يَكُونُ لِقُصُوْرهَا عَنْهُ وذَلِكَ في الْمَخْلُوقِ، وتارَةً يَكونُ لِعَدَم قَبُولِ ذلكَ الشّىءِ الدّخولَ في الوُجُودِ أي حُدوثَ الوجودِ لِكَوْنِهِ مُسْتَحيْلًا عَقْلِيًّا أو لعدَم قَبُولِ ذلك الشّىءِ العدَمَ لكونِهِ واجبًا عقليًّا. والعَجْزُ هُوَ الأَوَّلُ الْمَنْفِيُّ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالى لا الثّانِي، فَلا يَجُوزُ أنْ يُقَالَ إنَّ الله قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ولا عَاجِزٌ، قَالَ بَعْضُهُم كَما لا يُقَالُ عن الحَجَر عَالِمٌ ولا جَاهِلٌ.

وكَذَلِكَ يُجَابُ على قَولِ بَعْض الْمُلحدينَ «هل الله قَادِرٌ علَى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَه» وهَذا فِيهِ تجويزُ الْمُحَالِ العَقْلِيّ، وبَيانُ ذَلِكَ أنَّ اللهَ أزَلِيٌّ ولَوْ كَانَ لَهُ مِثْلٌ لَكانَ أزَلِيًّا، والأَزَلِيُّ لا يُخْلَقُ لأنه موجودٌ فكيف يُخْلَقُ الموجودُ.

أما المستحيلُ العقليُّ فعدمُ قَبولِهِ الدخولَ في الوجودِ ظاهرٌ وَأَمَّا الواجبُ العقليُّ فَلا يقبلُ حدوثَ الوجودِ لأنَّ وجودَهُ أَزلِيٌّ، فرقٌ بينَ الوجودِ وبينَ الدخولِ في الوجود فالوجودُ يشمَلُ الوجودَ الأزلِيَّ والوجودَ الحادثَ، أما الدخول في الوجود فهو الوجود الحادث فالواجبُ العقليُّ الله وصفاتُه، فالله واجبٌ عقليٌّ وجودُه أزليٌّ وصفاتُه أزليّةٌ ولا يُقال لله ولا لصفاتِهِ داخلٌ في الوجودِ لأنَّ وجودَهما أزلِيٌّ، فقولُنا إنَّ الواجبَ العقليَّ لا يقبلُ

---

(١) انظر المحلى (١/ ٣٣).

الدخولَ في الوجودِ صحيحٌ لكن يقصُر عنه أفهامُ الْمُبتدئينَ في العقيدةِ، أَمّا عِندَ مَن مَارسَ فَهي واضحةُ المُرادِ.

العِلمُ

اعلَم أَنَّ عِلْمَ الله قَدِيْمٌ أزَليٌّ كَما أَنَّ ذَاتَه أزَليٌّ، فلَم يزَلْ عالِمًا بذَاتِه وصِفَاتِه وَما يُحْدِثُه من مَخلُوقَاتِه، فَلا يتّصِفُ بعِلْم حَادثٍ لأَنَّه لَو جَازَ اتّصَافُه بالحَوادِث لانْتَفَى عَنْهُ القِدمُ لأَنَّ مَا كانَ مَحلًّا للحَوادِثِ لا بُدَّ أنْ يكُوْنَ حَادِثًا.

وَمَا أَوْهَمَ تَجدُّدَ العِلْم لله تَعالَى مِنَ الآيَاتِ القُرْءانِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالى ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾[1] فَلَيْسَ الْمُرَادُ به ذَلِكَ، وقَولُه ﴿وَعَلِمَ﴾ لَيسَ رَاجِعًا لِقَوْلِهِ ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ بل الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعالى خَفَّفَ عَنْكُم الآنَ لأَنَّه عَلِمَ بِعِلْمِهِ السَّابِقِ في الأَزَلِ أَنَّهُ يَكُونُ فِيكُم ضَعْفٌ.

وكَذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2] مَعْنَاهُ ولَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نُمَيّزَ أي نُظْهِرَ للخَلْقِ مَنْ يُجَاهِدُ ويَصْبِرُ مِنْ غَيْرِهم، وكَانَ الله عَالِمًا قَبْلُ كَما نَقَلَ البُخَارِيُّ[3] ذَلِكَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بنِ الْمُثَنَّى، وَهَذَا شَبِيْهٌ بِقَوْلِه تَعَالى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال/الآية (٦٦).

(٢) سورة محمد/الآية (٣١).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب سورة العنكبوت.

(٤) سورة الأنفال/الآية (٣٧).

الحَيَاةُ

يَجِبُ لله تَعَالَى الحَيَاةُ، فَهُوَ حَيٌّ لا كالأَحْياء إِذْ حَيَاتُهُ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ لَيْسَت بِرُوْحٍ وَدَمٍ.

والدَّلِيلُ علَى وُجُوبِ حَيَاتِه وجُودُ هَذا العَالَمِ، فَلَوْ لَم يَكُنْ حَيًّا لَم يُوْجَدْ شَيءٌ مِنَ العَالَم، لَكِنَّ وُجُودَ العَالَمِ ثَابِتٌ بالحِسّ والضَّرُوْرَةِ بِلا شَك.

الوَحْدانيّةُ

مَعْنى الوَحْدانِيّةِ أنَّه لَيْسَ ذَاتًا مُؤَلَّفًا من أَجْزَاءٍ، فَلا يُوْجَدُ ذاتٌ مِثْلُ ذَاتِه ولَيْسَ لغيرِه صفةٌ كصفتِهِ أو فعلٌ كفعلِهِ وليسَ الْمُرَادُ بوَحْدَانِيَّتِه وَحْدَانِيَّةَ العَدَدِ إذ الوَاحِدُ في العَدَدِ لَه نِصْفٌ وأَجْزَاءٌ أَيْضًا، بَل المُرَادُ أَنَّه لا شبيه لَه.

وَبُرهَانُ وَحْدانِيَّتِه هو أَنَّهُ لا بُدَّ للصَّانِعِ مِنْ أَن يَكُونَ حَيًّا قَادِرًا عَالِمًا مُرِيدًا مُخْتَارًا، فَإِذَا ثَبَتَ وَصْفُ الصَّانِعِ بِمَا ذَكَرنَاهُ قُلْنَا لَوْ كَانَ لِلْعَالَم صَانِعَانِ وَجَبَ أَنْ يَكونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَيًّا قَادِرًا عَالِمًا مُرِيْدًا مُخْتَارًا وَالْمُخْتَارَانِ يَجُوزُ اخْتِلافُهُمَا في الاخْتِيَارِ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما غَيْرُ مُجْبَرٍ عَلَى مُوَافَقَةِ الآخَرِ في اخْتِيَارِه، وإلا لكانا مَجبورَيْن والْمجْبورُ لا يكونُ إلـهًا، فإِذَا صَحَّ هَذا فَلو أَرَاد أَحَدُهُما خِلافَ مُرَادِ الآخَرِ في شَيءٍ كأَنْ أَرادَ أحدُهما حَياةَ شخْصٍ وأرادَ الآخرُ موتَه لَمْ يَخْلُ مِنْ أنْ يَتِمَّ مُرادهُما أوْ لا يَتِمَّ مُرادهُما أَوْ يتِمَّ مُرَادُ أَحَدِهِما وَلا يَتِمَّ مُرادُ الآخَرِ، وَمُحَالٌ تَمَامُ مُرَادَيْهِما لتَضَادّهِما أي إنْ أرَادَ أَحَدُهما

حَياةَ شخص وأرادَ الآخرُ مَوتَه يَسْتحيلُ أنْ يكونَ هَذا الشّخصُ حَيًّا وميّتًا في ءانٍ وَاحِدٍ، وإنْ لم يَتِمَّ مُرَادُهُما فَهُمَا عَاجِزَان والعَاجِزُ لا يكُونُ إلـهًا، وإِنْ تَمَّ مُرَادُ أحَدِهما ولَم يَتِمَّ مُرَادُ الآخَرِ فَإِنَّ الذي لَم يَتِمَّ مُرَادُهُ عَاجِزٌ وَلا يَكُونُ العَاجِزُ إلـهًا ولا قَدِيْمًا، وهَذِهِ الدّلالة مَعْروفَةٌ عِنْدَ الْمُوَحّدِين تُسَمَّى بدلالَةِ التَّمَانُعِ قَالَ تَعالى ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[1].

القِيَامُ بالنَّفْسِ

اعْلَم أَنَّ مَعْنَى قِيَامِه بنَفْسِه هُوَ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ كُلّ مَا سِوَاهُ فَلا يَحْتَاجُ إلى مُخَصّصٍ لَهُ بالوُجُوْدِ لأَنَّ الاحْتِيَاجَ إلى الغَيْرِ يُنَافِي قِدَمَهُ وَقَدْ ثَبَتَ وُجُوْبُ قِدَمِهِ وبَقَائِهِ.

المخَالفَةُ للحَوادِثِ

يَجِبُ لله تَعالى أنْ يكونَ مُخَالِفًا للحَوادِثِ بِمَعْنى أَنَّهُ لا يُشْبِهُ شَيئًا من خَلْقِه فلَيْسَ هُوَ بِجَوْهَرٍ يَشْغَلُ حَيّزًا ولا عَرَضٍ.

والجَوْهَرُ مَا لَهُ تَحيُّزٌ وقِيَامٌ بِذَاتِه كالأَجْسَام، والعَرَضُ مَا لا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وإِنَّما يَقُوْمُ بِغَيْرِهِ كالحَرَكَةِ والسُّكُونِ والاجْتِمَاع والافْتِرَاقِ والأَلْوَانِ والطُّعُوْمِ والرَّوَائِح، ولِذَلِكَ قَالَ الإمَامُ أبُو حَنِيفَةَ في بعضِ رسائلِهِ في علم الكلام[2] أَنَّى يُشْبِهُ الخَالِقُ مَخْلُوقَهُ مَعناهُ لا يصحُّ عقلًا ولا نقلًا أن يُشْبِهَ الخَالِقُ مَخْلُوقَه،

(١) سورة الأنبياء/الآية (٢٢).
(٢) الفقه الأكبر مع شرح ملا عليّ القاري (ص/٣٢٣) بنحوه.

وقال أبو سُلَيمَانَ الخَطَّابِيُّ «إِنَّ الذي يَجبُ عَلَيْنَا وعلَى كُلّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ أَنَّ رَبَّنَا لَيْسَ بِذِي صُوْرَةٍ وَلا هَيْئَةٍ فإِنَّ الصُّوْرَةَ تَقْتضي الكَيْفِيَّةَ وهي عن الله وعَنْ صِفَاتِهِ مَنْفيَّةٌ» رَواهُ عنه البَيْهَقِيُّ في الأَسْماءِ والصّفَاتِ[١].

وقَدْ تُطْلَقُ الكَيْفِيَّةُ بِمَعْنَى الحَقِيقَةِ كَمَا فِي قَوْلِ بَعْضِهِم [البسيط]

كَيْفِيَّةُ الْمَرْءِ لَيْسَ الْمَرْءُ يُدْرِكُهَا فَكيْفَ كَيْفِيَّة الجَبَّارِ في القِدَمِ

ومُرَادُ هَذَا القَائِلِ الحَقِيقَةُ. وهذا البيتُ ذكرَهُ الزركشيُّ وابنُ الجوزيّ وغيرُهُما[٢].

وقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيّ[٣] «وَمَنْ وَصَفَ الله بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي البَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ». وهوَ مِنْ أَهْلِ القَرْنِ الثَّالِثِ، فَهُوَ دَاخِلٌ في حَدِيثِ «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْني ثُمَّ الذيْنَ يَلُونَهُم ثُمَّ الذيْنَ يَلُونَهُم**» اهـ رواهُ الترمذيُّ[٤]. والقرنُ المرادُ به مائة سنة كما قالَ ذلكَ الحافظُ أبو القاسِمِ بنُ عساكرَ في كتابهِ تَبيين كذبِ المفترِي[٥] الذِي أَلَّفهُ في التنويهِ بأَبِي الحسنِ الأشعريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

---

(١) الأسماء والصفات (ص/٢٩٦).

(٢) ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٢/٢٤٩)، والزركشي في البحر المحيط (١/٤٥٦)، وابن الجوزي في كتابه دفع شبه التشبيه (ص/١٤٢).

(٣) العقيدة الطحاوية (ص/٢٣ - ٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الفتن باب ما جاء في القرن الثالث. وقال «هذا حديث حسن صحيح».

(٥) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص/١٤٤).

صِفَاتُ الله كُلُّها كاملةٌ

صِفَاتُ الله أزَلِيَةٌ أَبدِيَّةٌ لأَنَّ الذَّات أزَلِيٌّ فَلا تَحْصُلُ لَهُ صِفَةٌ لَم تَكُنْ في الأَزَلِ، أمَّا صِفَاتُ الخَلْقِ فَهِيَ حَادِثَةٌ تَقْبَلُ التَّطَوُّرَ مِنْ كَمَالٍ إلى أكْمَلَ فَلا يتجدَّدُ على عِلْم الله تَعَالَى شَىءٌ. والله تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ شَىءٍ بِعلْمِه الأَزَليّ وقُدْرَتِه الأَزَلِيَّةِ ومَشِيْئَتِه الأَزَلِيَّةِ. فَالْمَاضِي والحَاضِرُ والْمُسْتَقْبَلُ بِالنّسْبَةِ لله أَحَاطَ بِه بِعِلْمِهِ الأَزَلِيّ.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[١] فَلَيسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّه سَوْفَ يَعْلَمُ الْمُجَاهِدِينَ بَعْدَ أَنْ لَم يَكُنْ عَالِمًا بِهِم بِالامْتِحَانِ والاخْتِبَارِ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَى الله تَعَالَى، بَلْ مَعْنَى الآيَةِ حَتَّى نُمَيّزَ أي حَتَّى نُظْهِرَ لِلْعِبَادِ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِيْنَ مِنْ غَيْرِهِم.

ويَكْفُرُ مَنْ يَقُولُ إنَّ الله تَعَالى يَكْتَسِبُ عِلْمًا جَدِيدًا.

وَصِفَاتُ الله تَعَالَى كُلُّها كاملةٌ قَالَ تَعَالَى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]. وقالَ تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣] فَيَسْتَحِيلُ في حَقّهِ تَعالى أيُّ نَقْصٍ.

وأَمَّا قَولُه تَعَالى ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٥٤﴾[٤] فَالْمَكْرُ مِنَ الخَلْقِ خُبْثٌ وخِدَاعٌ لإِيْصَالِ الضَّرَرِ

(١) سورة محمد/الآية (٣١).
(٢) سورة الأعراف/الآية (١٨٠).
(٣) سورة النحل/الآية (٦٠).
(٤) سورة ءال عمران/الآية (٥٤).

إلى الغَيْرِ باسْتِعْمَالِ حِيلَةٍ، وَأَمَّا مِنَ الله تَعالى فَهُو مُجَازَاةُ الْمَاكِرِينَ بالعُقُوبَةِ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرُونَ. وبِعبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّ الله أَقْوَى في إيصَالِ الضَّرَرِ إلى الْمَاكِرِينَ منْ كُلّ مَاكِرٍ جَزَاءً لَهُم علَى مَكْرِهم فَالْمَكْرُ بِمَعْنى الاحْتِيَالِ مُسْتَحِيلٌ علَى الله.

وكَذَلِكَ قَولُه تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] أَيْ يُجَازِيْهِم عَلَى اسْتِهزَائِهِم.

واعلَم أنَّ العُلمَاءَ يقولونَ نؤمِنُ بإثْباتِ ما وَرَدَ في القُرءَانِ والحَديثِ الصَّحيحِ كالوَجْهِ واليَدِ والعَيْنِ والرّضَا والغَضَبِ وغَيْرِها علَى أنّها صِفَاتٌ يَعلَمُها الله لا علَى أنَّها جَوارِحُ وانْفِعالاتٌ كأَيْدِينا وَوُجُوهِنَا وعيُونِنَا وغَضَبِنا فَإِنَّ الجَوَارِحَ مُسْتَحِيْلَةٌ علَى الله لِقَوْلِه تَعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2]، وقولِهِ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[3].

قَالُوا لَو كَانَ لله عَيْنٌ بِمَعْنَى الجَارِحَةِ والجِسْمِ لَكَانَ لَهُ أَمْثَالٌ فَضْلًا عَنْ مِثْلٍ وَاحِدٍ ولَجَازَ عَلَيه ما يَجُوزُ على الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الْمَوْتِ والفَناءِ والتَّغَيُّرِ والتَّطور ولَكَانَ ذَلِكَ خُرُوْجًا مِنْ مُقْتَضى البُرْهَانِ العَقْلِيّ علَى اسْتِحَالَةِ التَّغَيُّرِ والتَّحوُّلِ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ علَى الله لأنَّ الدلائلَ العقليةَ على حدوث العالم طروءُ صفاتٍ لم تكن عليهِ والتحول من حالٍ إلى حالٍ.

ولا يَصِحُّ إهْمالُ العَقْلِ لأَنَّ الشَّرْعَ لا يَأْتِي إلا بِمُجَوَّزَاتِ

(١) سورة البقرة/الآية (١٥).
(٢) سورة الشورى/الآية (١١).
(٣) سورة الإخلاص/الآية (٤).

العَقْلِ أي إلا بما يقبَلُهُ العَقلُ لأَنَّه شَاهِدُ الشَّرْعِ، فَالعَقْلُ يَقْضِي بأَنَّ الجِسْمَ والجِسْمانِيَّاتِ أَي الأَحْوالَ العَارِضَةَ للجِسْم مُحْدَثَةٌ لا مَحَالَةَ وأَنّها مُحْتَاجَةٌ لِمُحْدِثٍ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَّصِفُ بها لَهُ مُحْدِثٌ ولا تَصِحُّ الألُوهِيَّةُ لِمنْ يَحْتَاجُ إلى غَيْرِهِ.

سَبَبُ نُزُولِ الإخْلاصِ

قَالَت اليَهُودُ للرَّسُولِ ﷺ «صِفْ لَنَا رَبَّكَ»[١]. قَدْ كَانَ سُؤالُهُم تَعَنُّتًا أي عِنَادًا لا حُبًّا للعِلْم واسْتِرْشَادًا به، فَأنْزَلَ الله سُوْرَة الإِخْلاصِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[٢] أي الذي لا يَقْبَلُ التَّعَدُّدَ والكَثْرَةَ ولَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ في الذَّاتِ أَو الصّفَاتِ أَو الأَفْعَالِ، وَلَيْسَ لأَحَدٍ صِفَةٌ كَصِفَاتِه، بَلْ قُدْرَتُه تَعَالى قُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْدِرُ بِهَا عَلَى كُلّ شَىءٍ وعِلْمُهُ وَاحِدٌ يَعْلَمُ به كُلَّ شَىءٍ.

قولُهُ تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾[٣] أي الذِي تَفتَقِرُ إليه جَمِيْعُ الْمَخلُوقَاتِ معَ استِغْنَائِه عنْ كُلّ مَوْجُودٍ، والذي يُقْصَدُ عندَ الشّدَّةِ بجَميعِ أنْواعِها ولا يَجْتَلِبُ بخَلْقِه نَفْعًا لِنَفْسِه ولا يَدْفَعُ بِهِمْ عَن نَفْسِه ضَرًّا.

قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾[٤] نَفْيٌ لِلْمَادّيَّةِ والانْحِلالِ وَهُوَ أَنْ يَنْحَلَّ مِنْهُ شَىءٌ أَوْ أَنْ يَحُلَّ هُوَ في شَىءٍ.

وَمَا وَرَدَ في كتاب «مَوْلِدِ العَرُوسِ» مِنْ أنَّ الله تَعالى قَبَضَ قَبْضَةً مِن نُورِ وجْهِهِ فَقَالَ لها كُوْنِي مُحمَّدًا فَكَانَتْ مُحمَّدًا فهذِه مِنَ الأَبَاطِيلِ الْمَدْسُوسَةِ، وحُكْمُ مَنْ يَعْتَقِدُ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ جُزْءٌ

---

(١) أخرج البيهقي في الأسماء والصفات (ص/٢٧٩) عن ابن عبّاس أنَّ اليهود أتوا إلى النَّبي فقالوا يا محمَّد صف لنا ربَّك الذي تعبده فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى ءاخر السّورة قال رسول الله «**هذه صفة ربّي عزَّ وجلَّ**».

(٢) سورة الإخلاص/الآية (١).

(٣) سورة الإخلاص/الآية (٢).

(٤) سورة الإخلاص/الآية (٣).

مِنَ الله تَعَالى التَّكْفِيرُ قَطْعًا، وكَذَلِكَ الذي يَعْتَقِدُ في الْمَسِيحِ أَنَّه جُزْءٌ منَ الله.

وليسَ هذا الكتابُ لابنِ الجَوزيّ رَحِمَهُ اللهُ، ولم يَنسُبْهُ إليهِ إلا الْمُستَشرِق بُروكلمَان.

قولُهُ تعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[1] أَيْ لا نَظِيْرَ لَهُ بِوَجْهٍ منَ الوُجُوهِ.

(١) سورة الإخلاص/الآية (٤).

الآياتُ الْمُحْكَمَاتُ والْمُتَشَابِهَاتُ

لِفَهْم هَذا الْمَوضُوعِ كَما يَنْبَغِي يَجبُ مَعْرفَةُ أنَّ القرءانَ تُوجَدُ فِيْهِ ءايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ وءايَاتٌ مُتَشَابِهاتٌ، قَالَ تَعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[(١)].

الآيَات الْمُحْكَمَة

هِيَ مَا لا يَحْتمِلُ منَ التّأوِيْلِ بِحَسَبِ وَضْعِ اللُّغَةِ إلا وَجْهًا وَاحِدًا، أَوْ مَا عُرِفَ الْمُرادُ به بوُضُوْح كقَولِه تَعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[(٢)]، وقَولِه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[(٣)]، وقَولِهِ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[(٤)].

الآيات الْمُتَشَابِهَة

والْمُتَشَابِهُ هُو مَا لَم تَتّضِح دِلالتُه أوْ يَحتَمِلُ أَوْجُهًا عَدِيْدَةً واحتَاجَ إلى النَّظَر لِحَمْلِهِ علَى الوَجْهِ الْمُطَابِقِ كقَولِه تَعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[(٥)]. وَقَوْلِه تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

(١) سورة ءال عمران/الآية (٧).
(٢) سورة الشورى/الآية (١١).
(٣) سورة الإخلاص/الآية (٤).
(٤) سورة مريم/الآية (٦٥).
(٥) سورة طه/الآية (٥).

﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[١] أيْ أَنَّ الكَلِمَ الطَّيّبَ كَلا إلهَ إلا الله يَصْعَدُ إلى مَحَلّ كَرَامَتِه وهُوَ السَّمَاءُ، والعَمَلُ الصَّالِحُ يرفَعُه أي الكلمُ الطيبُ يرفَعُ العملَ الصالحَ وَهَذَا مُنْطَبِقٌ ومُنْسَجِمٌ مَعَ الآيَةِ الْمُحكَمَةِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٢].

فَتَفْسِيرُ الآيَاتِ المُتَشَابِهَةِ يَجبُ أنْ يُرَدَّ إلى الآيَاتِ المُحْكَمَةِ هَذا في الْمُتَشَابِهِ الذِي يَجُوزُ للعُلَماءِ أَنْ يَعْلَمُوهُ، وأمّا المتشَابهُ الذِي أُريدَ بقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٣] على قراءةِ الوَقفِ على لفظِ الجَلالةِ فهو ما كانَ مثلَ وجْبَةِ القيامةِ وخروجِ الدجالِ على التّحديدِ، فلَيسَ مِن قَبيْلِ ءايةِ الاستواءِ.

وَقَدْ وَرَدَ عنْهُ ﷺ «**اعْمَلُوا بمُحْكَمِهِ وءامِنُوا بمُتَشَابِهِهِ**»[٤] ضَعِيفٌ ضَعْفًا خَفِيفًا.

وَقَد بَيَّنَ أَبُو نَصْرٍ القُشَيْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ[٥] الشَّنَاعَةَ التي تَلْزَمُ نُفَاةَ التّأوِيلِ، وأَبُو نَصْرٍ القُشَيْرِيُّ هُوَ الذي وصَفَهُ الحَافِظُ عَبدُ الرّزاقِ الطَّبَسِيُّ بإمَامِ الأَئِمَّةِ كَمَا نَقلَ ذَلِكَ الحَافِظُ ابنُ عَسَاكِرَ في كِتَابِه «تَبْيِينُ كَذِبِ المفْتَرِي»[٦].

قال المحدث اللغويّ الفقيه الحنفيّ مرتضى الزبيديّ في شرحه المسمى «إتحاف السادة المتقين» نقلًا عن كتاب «التذكرة

(١) سورة فاطر/الآية (١٠).
(٢) سورة الشورى/الآية (١١).
(٣) سورة ءال عمران/الآية (٧).
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/ ٦٣).
(٥) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١١٠).
(٦) تبيين كذب المفتري (ص/١٦٧).

الشرقية» لأبي نصر القشيريّ ما نصه(١)

وأمَّا قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾(٢) إنَّما يُريدُ بهِ وَقْتَ قِيَام السَّاعَةِ، فَإنّ الْمُشْرِكيْنَ سَأَلُوا النّبي ﷺ عن السّاعةِ أيّانَ مُرْسَاها ومتَى وقُوعُها، فَالْمُتَشَابهُ إشَارَةٌ إلى عِلْم الغَيبِ، فلَيْسَ يَعْلَمُ عَواقِبَ الأمُورِ إلا الله عَزَّ وجَلَّ، ولهذا قَالَ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾(٣) أيْ هلْ ينظُرونَ إلا قيامَ السَّاعَةِ، وكيفَ يَسُوغُ لِقَائِلٍ أَن يَقُولَ في كتابِ الله تَعالى مَا لا سَبِيْلَ لمخلُوقٍ إلى مَعرِفَتِهِ ولا يَعلَمُ تَأويْلَهُ إلا الله أَلَيسَ هذَا مِنْ أعْظَمِ القَدْحِ في النّبُواتِ وأنَّ النبِيَّ ما عرَفَ تأويلَ ما وَردَ في صِفاتِ الله تعالى ودعَا الخَلْقَ إلى عِلْمِ ما لا يُعلَمُ أَلَيْسَ الله يَقُولُ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾(٤) فإذًا علَى زَعْمِهم يَجِبُ أن يَقُولوا كَذَبَ حيثُ قال ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ إذْ لم يكنْ مَعلُومًا عِنْدَهُم، وإلا فأَينَ هذَا البَيَانُ وإذَا كانَ بلُغَةِ العَرَبِ فكيْفَ يَدَّعِي أنَّه مِمَّا لا تَعْلَمُه العَرَبُ لَمّا كانَ ذَلِكَ الشَّىءُ عَربيًّا فَما قَوْلٌ في مَقَالٍ مآلُهُ إلى تَكْذِيبِ الرَّبّ سُبْحانَه.

ثُمّ كَانَ النّبيُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ إلى عِبادَةِ الله تَعالى فلَو كَانَ في كلامِهِ وفي ما يُلْقِيه إلى أُمَّتِه شَىءٌ لا يَعْلَمُ تأْويْلَهُ إلا اللهُ تَعالى لكَانَ لِلقَوْمِ أنْ يَقُولُوا بَيّنْ لَنا أَوَّلًا مَنْ تَدْعُونَا إِليْهِ وَمَا

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ١١٠).
(٢) سورة ءال عمران/الآية (٧).
(٣) سورة الأعراف/الآية (٥٣).
(٤) سورة الشعراء/الآية (١٩٥).

الذِي تَقُولُ فإنَّ الإيْمانَ بمَا لا يُعلَمُ أصْلُهُ غَيْرُ مُتأَتٍ[١] ونِسْبَةُ النّبي ﷺ إلى أنّه دَعا إلى رَبّ مَوْصُوفٍ بصفَاتٍ لا تُعقَلُ أمرٌ عظِيمٌ لا يَتَخَيَّلُهُ مُسْلِمٌ، فَإنَّ الجَهْلَ بالصّفَاتِ يُؤَدّي إلى الجَهْلِ بالمَوْصُوفِ. والغَرَضُ أَنْ يَسْتَبِينَ مَنْ مَعَهُ مُسْكَةٌ من العَقْل أَنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ «استواؤُهُ صِفَةٌ ذَاتِيّةٌ لا يُعْقَلُ مَعنَاها، واليدُ صِفَةٌ ذَاتِيّةٌ لا يُعْقَل معناها، والقَدَمُ صِفَةٌ ذاتِيّةٌ لا يُعقَل مَعْنَاها» تمويهٌ ضِمْنَهُ تكييفٌ وتَشْبيهٌ ودُعاءٌ إلى الجَهْلِ وقَد وضَحَ الحقُّ لذِي عَينَيْنِ. ولَيْتَ شِعْرِي هذَا الذي يُنكِرُ التّأويلَ يَطْرُدُ هَذَا الإنكارَ في كُلّ شيءٍ وفي كُلّ ءايَةٍ أمْ يَقْنَعُ بتَرْكِ التّأْويلِ في صِفَاتِ الله تَعَالى. فَإن امتَنَعَ مِنَ التّأْويْلِ أَصْلًا فَقَدْ أبْطَلَ الشَّريْعَةَ والعُلُومَ إذْ مَا مِنْ ءايةٍ[٢] وخَبَرٍ إلا ويَحتاجُ إلى تَأويْل وتَصَرُّفٍ في الكَلام[٣] لأَنَّ ثَمَّ أشْياءَ لا بُدَّ منْ تَأْوِيلِها لا خِلافَ بَيْنَ العُقَلاءِ فِيه إلاَ الْمُلْحِدَة الذينَ قَصْدُهُم التَّعْطيلُ للشَّرَائِعِ، والاعتقادُ لِهَذَا يُؤدّي إلى إبطالِ ما هُوَ عليهِ من التمسكِ بالشرعِ.

وإنْ قَالَ يَجُوزُ التّأْوِيلُ على الجُمْلَةِ[٤] إلا في ما يتعلَّقُ بالله وبِصفَاتِه فلا تأْويلَ فِيْهِ، فَهذا مَصِيْرٌ مِنْهُ إلى أنَّ مَا يَتعلَّقُ بغيْرِ الله تَعالى يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ ومَا يتعَلَّقُ بالصَّانِعِ[٥] وصِفَاتِهِ يجِبُ

(١) أي لا يُمكِنُ، هذا مَعناهُ أنّ العربَ الذين أُرسِلَ إلَيهم كَانُوا قَالُوا له هذا لا يُمكِنُ.
(٢) من الآيات التي اختُلِف فيها من حيثُ التأويلُ وتركُه.
(٣) إلا المُحْكَمَ نَحْوُ قولِه تَعَالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد] ممّا وردَ في صفاتِ الله، وقولِه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [سورة المائدة] الآية مِمّا ورَدَ في الأَحْكَام.
(٤) أي في المواضع التي يُحتاج إلى تأويلها.
(٥) أي الخَالِق.

التَّقَاصِي عَنْهُ[١] وهَذَا لا يَرْضَى به مُسْلِمٌ. وَسِرُّ الأَمْر أَنَّ هَؤلاءِ الذينَ يَمتَنِعُونَ عن التّأويلِ مُعتقِدُونَ حَقِيْقةَ التَّشْبيهِ غَيْرَ أَنَّهُم يُدَلِّسُونَ ويَقُولونَ لَهُ يَدٌ لا كَالأَيْدِي وقَدَمٌ لا كالأَقْدَام واستِواءٌ بالذَّاتِ لا كَما نَعْقِلُ في ما بَيْنَنَا، فَلْيَقُل الْمُحَقّقُ هذَا كلامٌ لا بُدَّ مِن استِبْيَانٍ[٢] قَولُكُم نُجرِي الأَمْرَ على الظَّاهِرِ ولا يُعْقَلُ مَعْنَاهُ تنَاقُضٌ، إنْ أجرَيتَ علَى الظَّاهِر فَظَاهِرُ السَّاقِ في قَولِه تعالى ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾[٣] هُوَ العُضْوُ الْمُشْتَمِلُ علَى الجِلدِ واللَّحْمِ والعَظْمِ والعَصَبِ والْمُخِّ، فإنْ أخَذْتَ بهذَا الظَّاهِرِ والتَزَمْتَ بالإقْرَارِ بهذِهِ الأَعْضَاءِ فَهُو الكُفْرُ، وإنْ لَم يُمْكِنْكَ الأَخْذُ بِها[٤] فَأَيْنَ الأَخْذ بالظَّاهِر. أَلَسْتَ قَدْ تَركْتَ الظَّاهِرَ وعَلِمْتَ تَقَدُّسَ الرَّبّ تعالَى عَمّا يُوْهِمُ الظَّاهِرُ فَكَيْفَ يَكُوْنُ أَخْذًا بالظَّاهِر، وإنْ قالَ الخَصْمُ هَذِه الظَّواهِرُ لا مَعْنى لَها أَصْلًا فَهُو حُكْمٌ بأَنَّها مُلْغَاةٌ وَمَا كانَ في إبْلاغِها إلَيْنَا فائِدَةٌ وهِيَ هَدَرٌ وهذا مُحَالٌ، وفي لُغَةِ العَرَبِ مَا شِئْتَ منَ التَّجوُّزِ والتَّوَسُّع في الخِطَابِ وكَانُوا يَعْرِفُونَ مَوَارِدَ الكَلام ويَفْهَمُونَ الْمَقَاصِدَ، فَمنْ تَجافَى عن التّأوِيلِ فذَلِكَ لِقِلَّةِ فَهْمِهِ بالعَربِيَّةِ، ومَنْ أحَاطَ بِطُرُقٍ مِنَ العَرَبِيَّةِ هَانَ عليْهِ مَدْرَكُ الحقَائِقِ. وَقَدْ قِيلَ ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[٥] فَكَأَنَّهُ قَالَ والرّاسِخونَ في العِلْم أَيْضًا يَعْلَمُونَه وَيقولونَ ءامنا به فَإنَّ الإيمانَ بالشّىءِ إنَّما يُتَصَوَّرُ

(١) أي البُعْدُ عَنْهُ.
(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب استبيانه.
(٣) سورة القلم/الآية (٤٢).
(٤) أيْ إنْ كُنتَ لا تَقُولُ ذلِكَ.
(٥) سورة ءال عمران/الآية (٧).

بَعْدَ العِلْم، أمَّا مَا لا يُعْلَمُ فالإيمانُ بهِ غَيرُ مُتَأَتّ، ولهذَا قالَ ابنُ عَبَّاسٍ[(١)] «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ في العِلْم» انتهى كلامُ الحافِظِ الزَّبيديّ مما نقله عن أَبِي النصرِ القشيريّ رَحِمَهُ اللهُ.

فَهُنَا مَسلكَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا صَحِيحٌ

الأوّلُ مَسْلَكُ السَّلَفِ وهُم أهْلُ القُرونِ الثّلاثَةِ الأُولى أي أكثرهم فإنَّهُم يُأوّلونَها تأويْلًا إجْماليًّا بالإيمانِ بها واعتِقَادِ أنها ليسَت من صفاتِ الجسم بل أنَّ لَها مَعْنًى يَليقُ بجَلالِ الله وعظَمَتِه بلا تعْيينٍ بَلْ رَدُّوا تِلْكَ الآيَاتِ إلى الآياتِ المحكَمَةِ كقولِهِ تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(٢)].

وهُو كمَا قالَ الإمامُ الشّافعيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)] «ءامنْتُ بما جَاءَ عن الله على مُرادِ الله وبما جَاءَ عن رسولِ الله ﷺ على مُرادِ رَسُولِ الله» يعني رضي الله عنه لا علَى ما قد تذهَبُ إليه الأوْهَامُ والظُّنُونُ من الْمَعانِي الحِسّيَّةِ الجِسْمِيَّةِ التي لا تَجُوزُ في حَقّ الله تعالى.

ثم نَفْيُ التأويلِ التفصيليّ عن السلفِ كما زعمَ بعضٌ مَردُودٌ بما في صَحيحِ البُخَاريّ في كِتابِ تَفْسير القُرءانِ وعِبارتُه هُناكَ «سورةُ القصَص ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(٤)] إلا مُلْكَهُ[(٥)]

(١) تفسير البغوي (١/٤٢٨).
(٢) سورة الشورى/الآية (١١).
(٣) ذكره الحصني في كتابه دفع شبه من شبه وتمرد (ص/٥٦).
(٤) سورة القصص/الآية (٨٨).
(٥) قاله البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرءان باب سورة القصص.

ويقال ما يُتَقَرَّبُ به إليه» اهـ فمُلكُ الله[١] صفةٌ من صفاتِهِ الأزليةِ ليس كالْمُلك الذي يعطيه للمخلوقين.

وَفيهِ غَيرُ هَذَا المَوْضِعِ كتَأْوِيلِ الضَّحِك الوَارِد في الحَدِيثِ بالرَّحْمَةِ[٢].

وصَحَّ أيضًا التأويل التفصيليُّ عن الإمام أحمد وهو من السلف فقد ثبت عنه أنه قال في قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[٣] «إنَّمَا جاءَتْ قُدْرَتُهُ»، صَحَّحَ سنده الحافظ البيهقي[٤] الذي قال فيه الحافظ صلاح الدين العلائى «لم يأت بعد البيهقيّ والدارقطنيّ مثلهما ولا من يقاربهما». أما قولُ البيهقيّ ذلك ففِي كتاب مناقبِ أحمدَ، وأما قول الحافظ أبِي سعيد العلائيّ في البيهقيّ والدارقطنيّ فذلك في كتابه «الوَشْي المعلَم»، وأما الحافظ أبو سعيد فهو الذي يقول فيه الحافظ ابن حجر[٥] «شيخ مشايخنا» وكان من أهل القرن الثامن الهجريّ.

وهناك خلق كثير من العلماء ذكروا في تآليفهم أنّ أحمدَ أَوَّلَ منهم الحافظ عبد الرحمٰن بن الجوزيّ الذِي هو أحد أساطين المذهب الحنبليّ لكثرة اطّلاعه على نصوص المذهب وأحوال أحمد.

---

(١) أي سلطان الله.
(٢) حكاه البيهقي في الأسماء والصفات (ص/ ٤٧٠) عن الخطابي.
(٣) سورة الفجر/الآية (٢٢).
(٤) نقل ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٧) وعزاه للبيهقي في مناقب أحمد.
(٥) دفع شبه التشبيه (ص/ ١١٠).

الثانِي مسلك الخلف وهم يأوّلُونَها تفصيلًا بتعيينِ معانٍ لَها مما تقتضيه لغة العرب ولا يحملونها على ظواهرها أيضًا كالسلف، ولا بأس بسلوكه ولا سيما عند الخوف من تزلزل العقيدة حفظًا من التشبيه مثل قوله تعالى في توبيخ إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[1] فيجوز أن يقال المراد باليدين العناية والحفظ[2].

(١) سورة ص/الآية (٧٥).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٩٤).

تفسير قوله تعالى ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ وقوله تعالى ﴿مِن رُّوحِى﴾

ليعلم أنّ الله تعالى خالق الروح والجسد فليس روحًا ولا جسدًا، ومع ذلك أضاف الله تعالى روح عيسى صلى الله عليه وسلم إلى نفسه على معنى الملك والتشريف لا للجزئية في قوله تعالى ﴿مِن رُّوحِنَا﴾(١)، وكذلك في حق ءادم قوله تعالى ﴿مِن رُّوحِى﴾(٢) فمعنى قوله تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾(٣) أمرنا جبريل عليه السلام أن ينفخ في مريم الروح التي هي ملك لنا ومشرفة عندنا، لأنَّ الأرواح قسمان أرواح مشرّفة وأرواح خبيثة، وأرواح الأنبياء من القسم الأول، فإضافة روح عيسى وروح ءادم إلى نفسه إضافة ملكٍ وتشريفٍ.

ويكفر من يعتقد أنّ الله تعالى روح، فالروح مخلوقة تَنَزَّهَ اللهُ عن ذلك.

وكذلك قوله تعالى في الكعبة ﴿بَيْتِىَ﴾(٤) فهي إضافة ملك للتشريف لا إضافة صفة أو ملابسة لاستحالة الملامسة أو المماسة بين الله والكعبة.

وكذلك قول الله تعالى ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾(٥) ليس إلا للدلالة

(١) سورة الأنبياء/الآية (٩١).
(٢) سورة ص/الآية (٧٢).
(٣) سورة الأنبياء/الآية (٩١).
(٤) سورة البقرة/الآية (١٢٥).
(٥) سورة المؤمنون/الآية (١١٦).

على أنّ الله خالق العرش الذي هو أعظم المخلوقات ليس لأن العرش له ملابسة لله بالجلوس عليه أو بمحاذاته من غير جلوس، ليس المعنى أنّ الله جالس على عرشه باتصال وليس المعنى أنّ الله محاذٍ للعرش بوجود فراغ بين الله وبين العرش إن قُدّر ذلك الفراغ واسعًا أو قصيرًا كل ذلك مستحيل على الله، وإنما مزية العرش أنه كعبة الملائكة الحافين من حوله كما أنّ الكعبة شرّفت بطواف المؤمنين بها. ومن خواصّ العرش أنّه لم يعص الله تعالى فيه لأنّ من حوله كلهم عباد مكرَمون لا يعصون الله طرفة عين، ومن اعتقد أنّ الله خلق العرش ليجلس عليه فقد شبَّه اللهَ بالملوك الذين يعملون الأسرّة الكبار ليجلسوا عليها، ومن اعتقد هذا لم يعرف الله. ويكفر من يعتقد المماسة لاستحالتها في حق الله تعالى.

تفسير الآية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾

يجب أن يكون تفسير هذه الآية بغير الاستقرار والجلوس ونحو ذلك ويكفر من يعتقد ذلك فيجب ترك الحمل على الظاهر بل يحمل على محمِلٍ مستقيم في العقول فتحمل لفظة الاستواء على القهر ففي لغة العرب يقال استوى فلان على الممالك إذا احتوى على مقاليد الملك واستعلى على الرقاب كقول الشاعر [الرجز]

قد استوى بشر على العراقِ من غير سيف ودم مُهراقِ

وفائدة تخصيص العرش بالذكر أنّه أعظم مخلوقات الله تعالى حجمًا فيُعلم شمول ما دونه من باب الأَولى. قال الإمام عليّ «إنّ الله تعالى خلق العرش إظهارًا لقدرته، ولم يتخذه مكانًا لذاته»، رواه الإمام المحدّث الفقيه اللغويّ أبو منصور التميميّ في كتابه الفرق بين الفرق(١)، أو يقال استوى استواءً يعلمه هو مع تَنْزِيهِهِ عن استواء المخلوقين كالجلوس والاستقرار.

واعلم أنّه يجب الحذر من هؤلاء الذين يجيزون على الله القعود على العرش والاستقرار عليه مفسّرين لقوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾(٢) بالجلوس أو المحاذاة من فوق، ومدّعين أنّه لا يعقل موجود إلا في مكان، وحجتهم

(١) الفرق بين الفرق (ص/ ٣٣٣).
(٢) سورة طه/الآية (٥).

داحضة، ومدّعين أيضًا أنّ قول السلف استوى بلا كيف موافق لذلك ولم يدروا أنّ الكيف الذي نفاه السلف هو الجلوس والاستقرار والتحيّز في المكان والمحاذاة وكل الهيئات من حركة وسكون وانتقال.

قال الزبيدي والذي يَدحضُ شبههم أن يقال لهم قبل أن يخلق العالمَ أو المكان هل كان موجودًا أم لا، فمن ضرورة العقل أن يقولوا بلى فيلزمه لو صحّ قوله لا يعلم موجود إلا في مكان أحد أمرين إمّا أن يقول المكان والعرش والعالم قديم وإمّا أن يقول الربُّ تعالَى مُحْدَثٌ وهذا مآل الجهلةِ الحشْويّةِ، ليس القديم بالمحدث والمحدث بالقديم[١] اهـ

وقال القشيريّ في «التذكرة الشرقية»[٢] «فإن قيل أليس الله يقول ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٣] فيجب الأخذ بظاهره، قلنا الله يقول أيضًا ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[٤]، ويقول تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤﴾[٥] فينبغي أيضًا أن نأخذ بظاهر هذه الآيات حتى يكون على العرش وعندنا ومعنا ومحيطًا بالعالم محْدقًا به بالذات في حالة واحدة والواحد يستحيل أن يكون بذاته في حالة واحدة بكل مكان».

---

(١) ذكره الحافظ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (٢/١٠٩).
(٢) ذكره الحافظ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (٢/١٠٨).
(٣) سورة طه/الآية (٥).
(٤) سورة الحديد/الآية (٤).
(٥) سورة فصلت/الآية (٥٤).

قال القشيريُّ رَحِمَهُ اللهُ «قالوا قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ يعني بالعلم، و﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ إحاطة العلم، قلنا وقوله ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ قهر وحفظ وأبقى» انتهى.

يعني أنهم قد أوّلوا هذه الآيات ولم يحملوها على ظواهرها فكيف يعيبون على غيرهم تأويل ءاية الاستواء بالقهر، فما هذا التحكم.

ثم قال القشيري رَحِمَهُ اللهُ(١) «ولو أشعر ما قلنا توهّم غلبته لأشعر قوله ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾(٢) بذلك أيضًا حتى يقال كان مقهورًا قبل خلق العباد هيهات إذْ لم يكن للعباد وجود قبل خلقه إيّاهم بل لو كان الأمر على ما توهمه الجهلة من أنه استواء بالذات لأشعر ذلك بالتغيّر واعوجاج سابق على وقت الاستواء فإنّ البارئ تعالى كان موجودًا قبل العرش، ومن أنصف علِم أنّ قول من يقول العرش بالربّ استوى أمثل من قول من يقول الربّ بالعرش استوى، فالربُّ إذًا موصوفٌ بالعلوّ وفوقيةِ الرُّتْبَةِ والعظمةِ ومُنَزَّهٌ عن الكون في المكان وعن المحاذاة» اهـ

قال القشيريُّ رَحِمَهُ اللهُ(٣) «وقد نبغت نابغة من الرَّعاع لولا اسْتِنْزَالُهُمْ للعوامّ بما يقرب من أفهامهم ويُتصوّر في أوهامهم لأجللتُ هذا المكتوب عن تلطيخه بذكرهم، يقولون نحن نأخذ

(١) ذكره الحافظ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (١٠٨/٢).
(٢) سورة الأنعام/الآية (١٨).
(٣) ذكره الحافظ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (١٠٩/٢).

بالظاهر ونجرِي الآياتِ الموهمةَ تشبيهًا والأخْبارَ الموهمةَ حدًّا وعضوًا علَى الظَّاهِر ولا يجوز أن نُطَرّقَ التأويلَ إلى شىءٍ من ذلك، ويتمسّكون بقول الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1]، وهؤلاء والذي أرواحنا بيده أضرُّ على الإسلام من اليهود والنّصارى والمجوس وعبدة الأوثان لأنّ ضلالاتِ الكفّارِ ظاهرةٌ يتجنّبها المسلمون، وهؤلاء أتَوُا الدّينَ والعوامَّ من طريق يغترُّ به المستضعفون فَأَوْحَوْا إلى أوليائِهِم بهذه البدع وأحلُّوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء والجوارح والركوب والنُّزُول والاتكاء والاستلقاء والاستواء بالذات والتردد في الجهات. فمن أصغى إلى ظاهرهم يبادر بوهمه إلى تخيُّل المحسوسات فاعتقد الفضائح فسال به السيل وهو لا يدرِي» اهـ

فتبيَّن أنّ قول من يقول «إنّ التأويل غير جائز» خبطٌ وجهلٌ وهو محجوج بقوله ﷺ لابن عبّاس «**اللهمّ علّمه الحكمة وتأويل الكتاب**» رواه ابن ماجه وغيره[2] بألفاظ متعدّدة وأوله عند البخاري[3].

قال الحافظ ابن الجوزيّ في كتابه «المجالس»[4] «ولا شكّ

(١) سورة ءال عمران/الآية (٧).
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه المقدمة باب فضل ابن عباس، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٩٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦) «ولأحمد طريقان رجالهما رجال الصحيح».
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب قول النبي اللهم علمه الكتاب.
(٤) مجالس ابن الجوزي (ص/ ١٣).

أنّ الله استجاب دعاء الرسول ﷺ هذا» اهـ وشدد النكير والتشنيع على من يمنع التأويل ووسّع القول في ذلك فليطالعْه من أراد زيادة التأكّد.

ومعنى قوله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[١] فوقيَّةُ القَهْرِ دونَ المكان والجهة أي ليس فوقية المكان والجهة. ومعنى قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[٢] ليس مجيءَ الحركة والانتقال والزّوال وإفراغ مكان وملء ءاخر بالنسبة إلى الله ومن اعتقد ذلك يكفر.

فالله تعالى خلق الحركة والسّكون وكلَّ ما كان من صفات الحوادث فلا يوصف الله تعالى بالحركة ولا بالسُّكون، والمعنيُّ بقوله ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ جاء أمر ربّك أي أثر من ءاثار قدرته. وقد ثبت عن الإمام أحمد أنّه قال في قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ إنما جاءت قدرته، رواه البيهقيُّ في مناقب أحمد وقد مرَّ ذكره.

(١) سورة النحل/الآية (٥٠).
(٢) سورة الفجر/الآية (٢٢).

تفسير معيّة الله المذكورة في القرءان

ومعنى قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[١] الإحاطةُ بالعِلْمِ، وتأتِي المعيّةُ أيضًا بمعنى النُّصْرَة والكِلاءةِ، كقولِهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[٢].

وليس المعنيُّ بها الحلولَ والاتصال ويكفر من يعتقد ذلك لأنه سبحانه وتعالى مَنَزَّهٌ عن الاتصال والانفصال بالمسافة. فلا يقال إنّه متصل بالعالم ولا منفصل عنه بالمسافة لأن هذه الأمور من صفات الحجم والحجم هو الذي يقبل الأمرين والله جلّ وعلا ليس بحادث، نفى ذلك عن نفسه بقوله لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ[٣].

ولا يوصف الله تعالى بالكِبَرِ حجمًا ولا بالصغر[٤]، ولا بالطُّول ولا بالقصر لأنّه مخالف للحوادث، ويجب طرد كل فكرة عن الأذهان تُفضِي إلى تقدير الله تعالى وتحديده.

كان اليهود قد نَسَبُوا إلى الله تعالى التعب، فقالوا إنّه بعد

---

(١) سورة الحديد/الآية (٤).
(٢) سورة النحل/الآية (١٢٨).
(٣) سورة الشورى/الآية (١١).
(٤) فقولنا «الله أكبر» معناه أكبر من كلّ كبيرٍ قدرًا ودرجةً وقوّةً وعلمًا لا امتدادًا، وهذا مراد السَّلف بقولهم في الآيات المتشابهة «أمرُّوها كما جاءت بلا كيفيّةٍ» ليس معناه أن له كيفيّة ليست معلومةً لنا. وليس موافقًا للسّلف من يقول بناءً على ذلك استواء الله تعالى على العرش جلوس ولكن لا نعلم كيفيّة ذلك الجلوس.

خلق السمٰوات والأرض استراح فاستلقى على قفاه، وقولُهُمْ هذا كفر.

والله تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك وعن الانفعال كالإحساس بالتعب والآلام واللذات فالذِي تلحقه هذه الأحوال يجب أن يكون حادثًا مخلوقًا يلحقه التغيُّر، وهذا يستحيل على الله تعالى.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾[1].

إنما يَلْغُبُ من يعمل بالجوارح والله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة.

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٢٠﴾[2] فالله تعالى سميع وبصير بلا كيفية، فالسمع والبصر هما صفتان أزليّتان بلا جارحة، أي بلا أذن أو حدقة وبلا شرط قرب أو بُعدٍ أو جهةٍ، وبدون انبعاث شعاعٍ من البصر، أو تموّج هواء.

ومن قال لله أذن فقد كفر ولو قال له أذن ليست كآذاننا، بخلاف من قال له عين ليست كعيوننا ويد ليست كأيدينا بل بمعنى الصفة فإنّه جائز لورود إطلاق العين واليد في القرءان ولم يَرِدْ إطلاقُ الأُذُنِ عليهِ.

---

(١) سورة ق/الآية (٣٨).
(٢) سورة غافر/الآية (٢٠).

تفسير قوله تعالى ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾

قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾[(١)]. المعنى فأينما توجّهوا وجوهكم في صلاة النفل في السفر فثمّ قِبلة الله[(٢)]، أي فتلك الوِجهة التي توجهتم إليها هي قِبلة لكم، ولا يُراد بالوجهِ الجارحةُ.

وحكم من يعتقد الجارحة لله التكفير لأنه لو كانت له جارحةٌ لكان مِثْلًا لنا يجوز عليه ما يجوز علينا من الفناء.

وقد يُراد بالوجْهِ الجهةُ التي يُراد بِها التَّقَرُّبُ إلى الله تعالى كأنْ يقولَ أحدُهُمْ «فعلت كذا وكذا لوجه الله»، ومعنى ذلك «فعلت كذا وكذا امتثالًا لأمر الله تعالى».

ويحرم أن يقال كما شاع بين الجهال «افتح النافذة لنرى وجه الله» لأنَّ الله تعالى قال لِمُوسَى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[(٣)]، ولو لم يكن قصد الناطقين به رؤيةَ الله فهو حرام.

---

(١) سورة البقرة/الآية (١١٥).

(٢) هذا تفسير مجاهد ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٥٠٤ - ٥٠٥).

(٣) سورة الأعراف/الآية (١٤٣).

تفسير ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

فقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) معناه أنّ الله تعالى هادِي أهل السمٰوات والأرض لنور الإيمان، رواه البيهقيُّ(٢) عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، فالله تعالى ليس نورًا بمعنى الضوء، بل هو الذي خلق النور، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾(٣) أيْ خلق الظلمات والنور، فكيف يمكن أن يكون نورًا كخلقه تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

وحكم من يعتقد أنّ الله تعالى نور أي ضوء التكفير قطعًا. وهذه الآيةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أصرحُ دليلٍ على أنَّ اللهَ ليس حجمًا كثيفًا كالسمٰوات والأرض وليس حجمًا لطيفًا كالظلمات والنور، فمن اعتقد أنّ الله حجم كثيف أو لطيف فقد شبه الله بخلقه والآية شاهدة على ذلك. أكثرُ المشبهةِ يعتقدونَ أن الله حجمٌ كثيفٌ وبعضُهم يعتقدُ أنه حجمٌ لطيفٌ حيث قالوا إنه نورٌ يتلألأ، فهذه الآيةُ وحدَها تكفي للردِّ على الفريقينِ.

وهناك العديد من العقائد الكفرية كاعتقاد أنَّ الله تعالى ذو لون أو ذو شكل فليحذر الإنسان من ذلك جَهده على أيّ حالٍ.

---

(١) سورة النور/الآية (٣٥).
(٢) الأسماء والصفات (ص/ ٨١).
(٣) سورة الأنعام/الآية (١).

معنى القدرِ والإيمانِ بِهِ

قال بعض العلماء القدرُ هو تدبير الأشياء على وجه مطابق لعلم الله الأزلِيّ ومشيئته الأزلية فيوجدها في الوقت الذِي علم أنها تكون فيه فيدخل في ذلك عملُ العبدِ الخيرَ والشرَّ باختيارِهِ. ويدل عليه قول رسول الله ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١) رواه مسلم.

ومعناه أنَّ المخلوقات التي قدّرها الله تعالى وفيها الخير والشر وجدت بتقدير الله الأزلِيّ، وأمّا تقدير الله الذي هو صفةُ ذاتِهِ فهو لا يوصف بالشرّ بل تقدير الله للشر الكفرِ والمعصيةِ وتقديرُهُ للإيمانِ والطاعةِ حَسَنٌ منه ليس قبيحًا، فإرادة الله تعالى نافذة في جميع مراداته على حسب علمه بها، فما علم كونَهُ أراد كونه في الوقت الذي يكون فيه، وما علم أنّه لا يكون لم يرد أن يكون، فلا يحدث في العالم شىء إلا بمشيئته ولا يصيب العبدَ شىء من الخير أو الشر أو الصحة أو المرض أو الفقر أو الغنى أو غير ذلك إلا بمشيئة الله تعالى، ولا يخطئ العبدَ شىءٌ قدَّرَ اللهُ وشاءَ أنْ يصيبَهُ، فقد ورد أنّ النبيَّ ﷺ عَلَّمَ بعضَ بناتِهِ «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**» رواه أبو داود في السنن(٢) ثم تواتر واستفاض بين أفراد الأمّة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح.

وروى البيهقيُّ[١] رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن سيّدنا عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال «إنّ أحدكم لن يخلُص الإيمان إلى قلبه حتى يستيقن يقينًا غير شكّ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويقرَّ بالقدر كلّه» أي لا يجوز أن يؤمن ببعض القدر ويكفر ببعض.

وروى أيضًا[٢] بالإسناد الصحيح أنّ عمر بن الخطاب كان بالجابية - وهي أرض من الشام - فقام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال «من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هاديَ له»، وكان عندَهُ كافرٌ من كفّارِ العجَم من أهْلِ الذّمّةِ فقال بلُغَتِهِ «إنّ الله لا يضلُّ أحدًا»، فقال عمر للترجمان «ماذا يقول» قال إنّه يقول إنّ الله لا يضلّ أحدًا، فقال عمر «كذبت يا عدوّ الله ولولا أنّك من أهل الذمة لضربت عنقك هو أضلَّكَ وهو يدخلك النّار إن شاء»[٣].

وروى الحافظ أبو نعيم[٤] عن ابن أخِي الزهريّ عن عمّه الزهريّ أنّ عمر بن الخطاب كان يحب قصيدة لبيد بن ربيعة التي منها هذه الأبيات، وهي [الرمل]

إنّ تقوى ربنا خير نَفَلْ ... وبإذن الله ريثِي وعَجَلْ
أحمد الله فلا ند لهُ ... بيديه الخير ما شاء فَعَلْ
من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضلّ

(١) كتاب القضاء والقدر (ص/ ٢٩٩).
(٢) كتاب القضاء والقدر (ص/ ٢٦٠).
(٣) أي إن شاء أن تموت على كفرك هذا.
(٤) حلية الأولياء (٣/ ٣٦٩ - ٣٧٠).

ومعنى قوله «إنَّ تقوى ربنا خير نفل»، أي خيرُ ما يعطاه الإنسان.

ومعنى قوله «وبإذن الله ريثِي وعجل»، أي أنّه لا يُبطئ مُبطئ ولا يسرع مسرع إلا بمشيئة الله وبإذنه.

وقولِهِ «أحمدُ الله فلا ندَّ له»، أي لا مثل له.

وقولِهِ «بيديه الخير»، أي والشر.

وإنما اقتصر على ذكر الخير من باب الاكتفاء كقوله تعالى ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾(١) أي والبرد لأنّ السرابيل تقِي من الأمرين ليس من الحر فقط.

وقوله «ما شاء فعل» أي ما أراد الله حصوله لا بدّ أن يحصل وما أراد أن لا يحصل فلا يحصل.

وقوله «من هداه سبل الخير اهتدى» أي من شاء الله له أن يكون على الصراط الصحيح المستقيم اهتدى.

وقوله «ناعم البال» أي مطمئنّ البال. وقوله «ومن شاء أضلّ» أي من شاء له أن يكون ضالاًّ أضلَّهُ.

وروى البيهقيُّ عن الشافعيّ أنّه قال حين سئل عن القدر [متقارب تام]

ما شئتَ كان وإن لم أشأْ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ
خلقت العباد على ما علمْت ففي العلمِ يجري الفَتَى والمُسِن
على ذا منَنْتَ وهذا خذلْتَ وهذا أعنت وذا لم تعنْ

---

(١) سورة النحل/الآية (٨١).

فمنهم شـقيٌّ ومنهم سعيدٌ وهـذا قـبـيـح وهـذا حـسـنْ

فتبيّن بِهذا أنَّ الضميرَ في قوله تعالى ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ﴾(١) يعود إلى الله لا إلى العبد كما زعَمَتِ القدريّة بدليل قوله تعالى إخبارًا عن سيدنا موسى ﴿إِنۡ هِىَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِى مَن تَشَآءُۖ﴾(٢).

وكذلك قالت طائفة ينتسبون إلى أمين شيخو الذين زعيمهم اليوم عبد الهادي البانِيّ الذِي هو بدمشق فقد جعلوا مشيئة الله تابعة لمشيئة العبد حيث إنّ معنى الآية عندهم إن شاء العبد الاهتداء شاء الله له الهدى وإن شاء العبد أن يضل أضله الله(٣) فكذّبوا بالآية ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٤)، فإن حاول بعضهم أن يستدلّ بآية من القرءان لضد هذا المعنى قيل له القرءان يتصادق ولا يتناقض فليس في القرءان ءاية نقيضَ ءاية وليس هذا من باب الناسخ والمنسوخ، لأنَّ النسخ لا يدخل العقائدَ وليس موجبًا للتناقض فالنسخ لا يدخل في الأخبار إنما هو في الأمر والنهى. إنما النسخ بيان انتهاء حكم ءاية سابقة بحكم ءاية لاحقة، على أنّ هذه الفئة لا تؤمن بالنَّاسخ والمنسوخ.

ومن غباوتِهم العجيبة أنّهم يفسّرون قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾(٥) بأسماء الله الحسنى فإن قيل لهم لو كانت

(١) سورة النحل/الآية (٩٣).
(٢) سورة الأعراف/الآية (١٥٥).
(٣) انظر كتابه التفسير (٢/ ١٠٥ و٢٦٤).
(٤) سورة التكوير/الآية (٢٩).
(٥) سورة البقرة/الآية (٣١).

الأسماء هي أسماء الله الحسنى لم يقل الله ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾[(١)] بل لقال فلما أنبأهم بأسمائِي انقطعوا، لكنهم يُصِرُّون على جهلهم وتحريفهم للقرءان.

وروى الحاكم رَحِمَهُ اللهُ تعالى أنّ عليَّ الرضا بن موسى الكاظم كان يقعد في الروضة وهو شابٌّ ملتحفٌ بمطرَف[(٢)] خزّ فيسأله الناس ومشايخ العلماء في المسجد، فسئل عن القدر فقال قال الله عزّ من قائل ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾[(٣)]. ثم قال الرضا «كان أبِي يذكر عن ءابائه أنّ أمير المؤمنين عليَّ بن أبِي طالب كان يقول «إنّ الله خلق كل شىء بقدر حتى العجزَ والكيسَ وإليه المشيئة وبه الحَوْلُ والقوة»» اهـ

فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر كالريشة المعلقة تُميلها الرياح يَمنةً ويَسرةً كما تقول الجبريةُ.

ولو لم يشأ الله عصيان العصاة وكفر الكافرين وإيمان المؤمنين وطاعة الطائعين لما خلق الجنة والنار.

ومن ينسب لله تعالى خلق الخير دون الشر فقد نسب إلى الله تعالى العجز ولو كان كذلك لكان للعالم مدبران مدبرُ خيرٍ ومدبّرُ شرٍ وهذا كفر وإشراك.

---

(١) سورة البقرة/الآية (٣٣).

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ١٢١) «المطرف بكسر الميم وفتحها وضمها الثوب الذي في طرفيه علمان».

(٣) سورة القمر/الآية (٤٧ - ٤٩).

وهذا الرأي السفيه من جهة أخرى يجعل اللهَ تعالى في مُلكه مغلوبًا لأنّه على حسب اعتقاده اللهُ تعالى أراد الخير فقط فيكون قد وقع الشر من عدوّه إبليسَ وأعوانه الكفّار رغم إرادته.

ويكفر من يعتقد هذا الرأيَ لِمُخالفته قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[(١)] أي لا أحد يمنع نفاذَ مشيئته.

وحكم من ينسُب إلى الله تعالى الخير وينسُب إلى العبد الشرّ أدبًا أنّه لا حرج عليه، أمّا إذا اعتقد أنّ الله خلق الخير دون الشر فحكمه التكفير.

واعلموا رحمكم الله أنّ الله تعالى إذا عذَّب العاصيَ فبعدله من غير ظلم، وإذا أثاب المطيع فبفضله من غير وجوب عليه، لأنّ الظلم إنَّما يُتصوّر ممن له ءامر وناهٍ ولا ءامر لله ولا ناهيَ له، فهو يتصرّف في مِلكه كما يشاء لأنّه خالقُ الأشياء ومالكها، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد في مسنده[(٢)] والإمام أبو داود في سننه[(٣)] وابن حبّان[(٤)] عن ابن الديلميّ قال «أتيت أُبَيَّ بنَ كعبٍ فقلت يا أبا المنذر، إنّه حدث في نفسي شىء من هذا القدر فحدّثنِي لعلّ اللهَ ينفعنِي»، قال «إنَّ الله لو عذَّب أهل أرضه وسمٰواته لعذّبَهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من

(١) سورة يوسف/الآية (٢١).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٨٢).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في القدر.
(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/ ٥٥).

أعمالهم، ولو أنفقتَ مثل أحُدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو متَّ على غير هذا دخلتَ النّار». قال ثمَّ أتيتُ عبدَ الله بنَ مسعود فحدَّثَنِي مثل ذلك، ثم أتيتُ حذيفةَ بنَ اليمانِ فحدثنِي مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثنِي مثلَ ذلك عن النبيّ ﷺ.

ورَوَى مسلمٌ في صحيحه[(١)] والبيهقيُّ في كتابِ القَدَرِ[(٢)] عن أبِي الأسود الدُّؤَلِيّ قال قال لِي عِمْرانُ بنُ الْحُصَيْنِ أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشىءٌ قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم وثبتَتِ الْحُجَّةُ عليهم فقلت بل شىء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم، قال فقال أفلا يكون ظلمًا، قال ففزعتُ من ذلك فزعًا شديدًا وقلت كلُّ شىء خلقه ومِلك يده لا يُسأل عما يفعلُ وهم يُسألون، قال فقال لِي يرحمك الله إنّي لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إنَّ رجلين من مُزينة أتيا رسول الله فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناسُ اليومَ ويكدحون فيه أشىءٌ قضيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال «**بل شىء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم، ومصداقُ ذلك قولُ اللهِ تبارك وتعالى** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[(٣)]».

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي.
(٢) القضاء والقدر (ص/١٢٣).
(٣) سورة الشمس/الآية (٧ - ٨).

وصحّ حديث «**فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه**» رواه مسلم[١] من حديث أَبِي ذرّ عن النبيّ ﷺ عن الله عز وجل.

أما الأوَّل وهو من وجد خيرًا فلأنّ الله تعالى متفضّل عليه بالإيجاد والتوفيق من غير وجوب عليه فليحمد العبد ربه على تفضله عليه.

أمّا الثاني وهو من وجد شرًّا فلأنّه تعالى أبرز بقدرته ما كان من ميل العبد السيّئ فمن أضله الله فبعدله ومن هداه فبفضله.

ولو أنّ الله خلق الخلق وأدخلَ فريقًا الجنّةَ وفريقًا النّار لسابق علمه أنّهم لا يؤمنون لكان شأن الْمُعَذَّب منهم ما وصف الله بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾[٢].

فأرسل الله الرسلَ مبشرين ومنذرين ليُظهر ما في استعداد العبد من الطَّوعِ والإباء فيهلِك من هلك عن بيّنة ويحيا من حَيَّ عن بيّنة.

فأخبرنا أنّ قسمًا من خلقه مصيرهم النّار بأعمالهم التي يعملون باختيارهم، وكان تعالى عالمًا بعلمه الأزليّ أنّهم لا يؤمنون، قال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[٣]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم.
(٢) سورة طه/ الآية (١٣٤).
(٣) سورة السجدة/ الآية (١٣).

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنّه قال في الأزل ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣﴾[1] وقوله صدق لا يتخلّف لأنّ التخلّف أي التغيّر كذب والكذب محال على الله.

قال تعالى ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٤٩﴾[2] أي ولكنّه لم يشأ هداية جميعكم إذ لم يسبق العلم بذلك، فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر.

واعلم أنّ ما ذكرناه من أمر القدر ليس من الخوض الذي نهى النبيُّ ﷺ عنه بقوله «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**» رواه الطبرانِيّ[3]، لأنّ هذا تفسير للقدر الذي ورد به النصُّ، وأمّا المنهيُّ عنه فهو الخوض فيه للوصول إلى سرّه، فقد روى الشافعيّ[4] والحافظ ابن عساكر[5] عن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال للسائل عن القدر «سرُّ الله فلا تتكلّف»، فلمّا أَلَحَّ عليه قال له «أمّا إذ أبيت فإنّه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض».

واعلم أيضًا أنّ رسول الله ﷺ قد ذمّ القدرية وهم فرق، فمنهم من يقول العبد خالق لجميع فعله الاختياريّ، ومنهم من

(١) سورة السجدة/الآية (١٣).
(٢) سورة الأنعام/الآية (١٤٩).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن مسعود (٢/١١٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٠٢) «وفيه مسهر بن عبد الله وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال عن الإمام الشافعي (١/٣٤٨) وعزاه للحلية ولم نعثر عليه فيه.
(٥) تاريخ دمشق (٥١/١٨٢).

يقول هو خالق الشرّ دون الخير وكلا الفريقين كفار، قال رسول الله ﷺ «**القدريّة مجوس هذه الأمّة**»[١] وفي رواية لهذا الحديث «**لكلّ أمّة مجوس، ومجوس هذه الأمّة الذين يقولون لا قدر**» رواه أبو داود[٢] عن حذيفة عن النبي ﷺ.

وفى كتاب «القدر» للبيهقيّ[٣] وكتاب «تهذيب الآثار»[٤] للإمام ابن جرير الطبريّ رحمهما الله تعالى عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال «**صنفان من أمتِي ليس لهما نصيب في الإسلام القدريّة والمرجئة**»[٥].

فالمعتزلة هم القدريّة لأنّهم جعلوا الله والعبد سواسية بنفي القدرة عنه عز وجل على ما يُقدِرُ عليه عبدَه، فكأنّهم يثبتون خالقين في الحقيقة كما أثبتَ المجوس خالقين خالقًا للخير هو عندهم النور وخالقًا للشر هو عندهم الظلام.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٧).
(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في القدر.
(٣) القضاء والقدر (ص/ ٢٨٨ - ٢٨٩).
(٤) تهذيب الآثار (٢/ ١٨٠).
(٥) المرجئة هم طائفة انتسبوا للإسلام كانوا يعتقدون أن العبد المؤمن مهما عمِل من الكبائر ومات بلا توبة ليس عليه عذاب.

والهداية على وجهين

أحدهما إبانة الحقّ والدعاء إليه، ونصب الأدلة عليه، وعلى هذا الوجه يصحُّ إضافة الهداية إلى الرُّسل وإلى كلّ داع لله كقوله تعالى في رسوله محمّد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[2].

والثَّانِي من جهة هداية الله تعالى لعباده، أي خلق الاهتداء في قلوبهم كقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾[3].

والإضْلالُ خلق الضَّلال في قلوب أهل الضَّلال فالعبادُ مشيئتهم تابعة لمشيئة الله قال تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[4].

وهذه الآية من أوضح الأدلة على ضلال جماعة أمين شيخو لأنهم يقولون إن شاء العبد الهداية يهديه الله وإن شاء العبد الضلال يضله الله[5]، فماذا يقولون في هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ فإنَّها صريحةٌ في سَبْقِ

---

(١) سورة الشورى/الآية (٥٢).
(٢) سورة فصلت/الآية (١٧).
(٣) سورة الأنعام/الآية (١٢٥).
(٤) سورة الإنسان/الآية (٣٠).
(٥) انظر الكتاب المسمى التفسير الفريد القسم الثاني (ص/٢٦٧ - ٢٦٨).

مشيئةِ اللهِ على مشيئةِ العبدِ لأنَّ اللهَ نسبَ المشيئة إليه وما ردّها إلى العباد. فأولئك كأنَّهُمْ قالوا مَنْ يُرِدِ العبدُ أن يشرح صدره للإسلام يشرح الله صدره، ثم قوله ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ فلا يمكن أن يرجع الضمير في ﴿يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ إلى العبد لأن هذا يجعل القرءان ركيكًا ضعيف العبارة والقرءان أعلى البلاغة لا يوجَدُ فوقه بلاغةٌ، فبان بذلك جهلُهُمُ العميقُ وغباوتُهُمُ الشديدةُ. وعلى موجب كلامهم يكون معنى الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ أنَّ العبد الذي يريد أن يهديه الله يشرح الله صدره للهدى وهذا عكس اللفظ الذي أنزله الله، وهكذا كان اللازم على موجب اعتقادهم أن يقول الله والعبد الذي يريد أن يضلّه الله يجعل صدره ضيّقًا حرجًا، وهذا تحريف للقرءان لإخراجه عن أساليب اللغة العربية التي نزل بِها القرءان وفهم الصحابة القرءان على موجبها، والدليل على أنهم يفهمون القرءان على خلاف ما تفهمه هذه الفرقة اتفاق المسلمين سلفهم وخلفهم على قولهم «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

تقدير الله لا يتغير

اعلم أنَّ تقدير الله تعالى الأزلِيَّ لا يغيّره شىء لا دعوةُ داع ولا صدقة متصدق ولا صلاة مصلٍّ ولا غير ذلك من الحسنات بل لا بدّ أن يكون الخلق على ما قدّر لهم في الأزل من غير أن يتغيّر ذلك. وأمّا قول الله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾[1] فليس معناه أنّ المحو والإثبات في تقدير الله، بل المعنى في هذا أنّ الله جلّ ثناؤه قد كتب ما يصيب العبد من عباده من البلاء والحرمان والموت وغير ذلك وأنه إن دعا الله تعالى أو أطاعه في صلة الرحم وغيرها لم يصبه ذلك البلاء ورزقه كثيرًا أو عمَّره طويلًا، وكتب في أمّ الكتاب ما هو كائنٌ من الأمرين، فالمحو والإثبات راجع إلى أحد الكتابين كما أشار إليه ابن عباس، فقد روى البيهقيّ[2] عن ابن عباس في قول الله عز وجل ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ قال «يمحو الله ما يشاء من أحد الكتابين، هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت وعنده أم الكتاب» اهـ

والمحو يكون في غير الشقاوة والسعادة، فقد روى البيهقيّ أيضًا[3] عن مجاهد أنه قال في تفسير قول الله تعالى ﴿فِيهَا

(١) سورة الرعد/الآية (٣٩).
(٢) كتاب القضاء والقدر (ص/ ٢١٤).
(٣) كتاب القضاء والقدر (ص/ ٢١٦).

يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾[١] «يفرق في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، فأمّا كتاب الشقاء والسعادة فإنّه ثابتٌ لا يُغيّر» اهـ

فلذلك لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ الدعاء الذي فيه «إن كنت كتبتني في أم الكتاب عندك شقيًّا فامحُ عني اسم الشقاء وأثبتني عندك سعيدًا، وإن كنت كتبتني في أم الكتاب محرومًا مقتّرًا عليَّ رزقِي فامْحُ عني حرمانِي وتقتير رزقي وأثبتني عندك سعيدًا موفَّقًا للخير فإنّك تقول في كتابك ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾» ولا ما أشبهه، ولم يصحَّ هذا الدعاء أيضًا عن عمر ولا عن مجاهد ولا غيرهما من السلف كما يُعلم ذلك من كتاب «القدر» للبيهقيّ[٢].

وليعلم أن مشيئة الله وتقديره لا يتغيران لأن التغير مستحيل على الله. وأما حديث[٣] «**لا يرد القدر شيء إلا الدعاء**» فهذا راجع إلى القدر المعلق ليس إلى القدر المبرم.

---

(١) سورة الدخان/الآية (٤).
(٢) القضاء والقدر (ص/ ٢١٥ - ٢١٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه المقدمة باب في القدر.

تقسيم الأمور إلى أربعة

الأمور على أربعة أقسام

الأول شىء شاءه الله وأمر به وهو إيمان المؤمنين وطاعة الطائعين.

والثانِي شىء شاءه الله ولم يأمر به وهو عصيان العصاة وكفر الكافرين، إلا أنّ الله لا يحب الكفر مع أنّه خلقه بمشيئته ولا يرضاه لعباده، قال تعالى ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[1].

والثالث أمرٌ لم يشأه الله وأمر به وهو الإيمان بالنسبة للكافرين الذين علم الله أنّهم يموتون على الكفر أمروا بالإيمان ولم يشأه لهم.

والرابع أمر لم يشأه ولم يأمر به وهو الكفر بالنسبة للأنبياء والملائكة.

ومن كان مؤمنًا بالقرءان الكريم فليقفْ عند قوله تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، فلا يقال كيف يعذّب العصاة على معاصيهم التي شاء وقوعها منهم في الآخرة.

(١) سورة الزمر/الآية (٧).
(٢) سورة الأنبياء/الآية (٢٣).

توحيد الله في الفعل

رُوِيَ عن الجنيد[١] إمامِ الصوفيّةِ العارفينَ عندما سُئِلَ عن التوحيدِ أنّه قال «اليقين» ثم استُفسر عن معناه فقال «إنّه لا مكوّنَ لشىء من الأشياء من الأعيان والأعمال خالق لها إلا الله تعالى» اهـ، قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢].

وقال الرسول ﷺ «**إنّ الله صانع كل صانع وصنعته**»، رواه الحاكم[٣] والبيهقيّ[٤] من حديث حذيفة، إذ العباد لا يخلقون شيئًا من أعمالهم وإنما يكتسبونها، فقد قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥] تَمَدَّحَ تعالى بذلك لأنّه شىء يختص به، وذلك يقتضِي العموم والشمول للأعيان والأعمال والحركات والسكنات.

وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[٦] ساق الله الصلاة والنسك والْمَحْيَا والممات في مساق واحد وجعلها مِلكًا له، فكما أنَّ الله خالق الحياة والموت كذلك الله خالقٌ للأعمال الاختيارية كالصلاة والنسك والحركات الاضطرارية

(١) حلية الأولياء (١٠/٢٥٦).
(٢) سورة الصافات/الآية (٩٦).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/٣١)، وسكت عليه، قال الذهبي «صحيح على شرط مسلم».
(٤) شعب الإيمان (١/٢٠٩).
(٥) سورة الرعد/الآية (١٦).
(٦) سورة الأنعام/الآية (١٦٢ - ١٦٣).

من باب الأَوْلَى. وإنما تمتاز الأعمال الاختيارية أي التي لنا فيها ميل بكونِها مُكْتَسَبَةً لنا فهي محل التكليف.

والكسبُ الذي هو فعل العبد وعليه يثاب أو يؤاخذ في الآخرة هو توجيه العبد قصده وإرادته نحو العمل أي يصرِف إليه قدرته[١] فيخلقه الله عند ذلك، فالعبد كاسب لعمله والله تعالى خالق لعمل هذا العبد الذي هو كسب له، وهو من أغمض المسائل في هذا العِلْم. قال الله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴿٢٨٦﴾﴾[٢] فليس الإنسانُ مجبورًا لأنّ الجبر ينافِي التكليفَ، وهذا هو المذهب الحق وهو خارج عن الجبر والقدر أي مذهبِ الجبريةِ والقدرية.

ويكفر من يقول إنّ العبد يخلق أعماله كالمعتزلة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] «كلام القدرية كفر» والقدرية هم المعتزلة.

قال أبو يوسف[٤] «المعتزلة زنادقة».

ووصفهم أبو منصور التميميُّ في كتابه «الفرق بين الفرق»[٥] بأنّهم مشركون. وأبو منصور هو الذِي قال فيه ابن حجر الهيتميُّ هذه العبارة «وقال الإمام الكبير إمام أصحابنا أبو منصور البغداديّ»، وهو ممن كتب عنهم البيهقيُّ في الحديثِ.

---

(١) وهذا الصرف هو بمشيئة الله تعالى.
(٢) سورة البقرة/الآية (٢٨٦).
(٣) انظر شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٧١٣).
(٤) إيضاح الدليل (١/ ٢٢) وأصول الدين (ص/ ٣١٢).
(٥) الفرق بين الفرق (ص/ ٣٣٩).

ولا تغترَّ بعدم تكفير بعض المتأخرين لهم، فقد نقل الأستاذ الإمام أبو منصور التميميُّ البغداديُّ في كتابه «أصول الدين»[١] وكذلك في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»[٢] تكفيرهم عن الأئمة. قال في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»[٣] «أصحابُنا أجمعوا على تكفير المعتزلة» أي الذين يقولون العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وكذلك الذين يقولون فرضٌ على الله أن يفعل ما هو الأصلح للعباد. وقولُه «أصحابنا» يعنِي به الأشعريّة والشافعية لأنه أشعريٌّ شافعيٌّ بل هو رأس كبير في الشافعية كما قال ابن حجر وهو إمام مقدّم في النقل معروف بذلك بين الفقهاء والأصوليين والمؤرخين الذين ألّفوا في الفِرَقِ، فمن أراد مزيد التأكد فليطالع كتبه هذه، فلا يُدافَعُ نقلُه بكلام الباجوريّ وأمثاله ممن هو من قبل عصره أو بعده.

وأما كلامُ بعضِ المتقدّمينَ مِنْ تَرْكِ تَكفيرِهِمْ فمحمولٌ على مِثْلِ بِشْرٍ الْمِرّيسِيّ[٤] والمأمون العبَّاسِيّ، فإنّ بِشرًا كان مُوافِقَهم في القول بخلق القرءان وكَفَّرَهُمْ في القولِ بِخلقِ الأفعال فلا يحكم على جميع من انتسب إلى الاعتزال بحكم واحد ويحكم على كل فرد منهم بكونه ضالاً.

---

(١) أصول الدين (ص/ ٣١٢).

(٢) الأسماء والصفات (ق/ ٢٨٨).

(٣) هذا الكتاب نادر الوجود يوجد منه نسختان أو ثلاث خطّيَّة في بعض المكتبات.

(٤) وأما ما ينقل عنه من كفر صريح غير هذا فإن ثبت عنه فهو كافر.

الدليلُ العقليُّ على فسادِ قولِ المعتزلةِ بأنَّ العبدَ يَخْلُقُ أفعاله

قال أهل الحق «امتنع خلق العبد لفعله لعموم قدرة الله تعالى وإرادته وعلمه».

وبيان الدليل على ذلك أنّ قدرة الله عامة وعلمه عامٌّ وإرادته عامةٌ فإنّ نسبتها إلى الممكنات نسبة واحدة فإنّ وجود الممكن العقلِيّ إنما احتاج إلى القادر من حيث إمكانه وحدوثه، فلو تخصصت صفاته هذه ببعض الممكنات للزم اتصافه تعالى بنقيض تلك الصفات من الجهل والعجز وذلك نقص والنقص عليه محال، ولاقتضى تَخَصُّصُها مخصِّصًا وتعلَّق المخصّصُ بذات الواجب الوجود وصفاته وذلك محال، فإذًا ثبت عموم صفاته.

فلو أراد الله تعالى إيجادَ حادث وأراد العبد خلافه ونفذ مراد العبد دون مراد الله للزم المحال المفروض في إثبات إلهين، وتعددُ الإله محال بالبرهان، فما أدّى إلى المحال محال.

إثبات أنّ الأسباب العادية لا تؤثر على الحقيقة وإنّما المؤثر الحقيقيّ هو الله

ذكر الحاكم صاحب المستدرك في تاريخ نيسابور قال «سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبريَّ يقول سمعت أبا العباس عيسى بن محمد بن عيسى الطَّهمانِيَّ المروزيّ يقول إنّ الله تبارك وتعالى يظهر ما شاء إذا شاء من الآيات والعبر في بريَّته، فيزيد الإسلامَ بها عزًّا وقوة ويؤيد ما أنزل من الهدى والبينات وينشرُ أعلام النبوة ويوضح دلالةَ الرسالة ويوثِق عرى الإسلام ويثبت حقائقَ الإيمان منًّا منه(١) على أوليائه وزيادة في البرهان بهم وحجة على من عاند في طاعته(٢) وألحد في دينه ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيَّ عن بيّنة(٣) فله الحمد لا إله إلا هو ذو الحجَّة البالغة(٤) والعزّ القاهرِ(٥) والطَّولِ الباهر(٦)، وصلى الله على سيدنا محمد نبيّ الرحمة ورسول الهدى وعليه وعلى ءاله الطاهرين السلام ورحمة الله وبركاته.

---

(١) أي فضلًا منه.

(٢) أي حتى يكون حجّةً على الذين تركوا طاعته بترك الإيمان به.

(٣) أي حتى يهلك الهالكون عن بيّنةٍ أي بعد قيام الحجَّة، ويحيا من حيَّ عن بيّنَة أي حتى يؤمن الذين ءامنوا بالدّليل، يكون صار معهم دليل بعد رؤيتهم لما أظهره الله تعالى من الآيات والعبر.

(٤) أي القويّة، معناه يستحيل عليه الظُّلم.

(٥) أي له عزٌّ قاهر، عزٌّ يغلب أعداءه، الله تعالى هو العزيز معناه الذي يغلبُ ولا يُغْلَبُ.

(٦) أي الفضل القويّ، والطول بفتح الطاء، الله تعالى ذو الطَّول أي ذو الفضل، والباهر معناه القويُّ.

وإنّ مما أدركنا عيانًا وشاهدناه في زماننا وأحطنا علمًا به[(١)] فزادنا يقينًا في ديننا وتصديقًا لما جاء به نبينا ودعا إليه من الحق فرغّب فيه من الجهاد من فضيلة الشهداء[(٢)] وبلّغ عن الله عز وجل فيهم إذ يقول جل ثناؤه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[(٣)(٤)]، أنّي وردت في سنة ثمان وثلاثين ومائتين مدينة من مدائن خوَارِزْمَ تُدعى هَزَارَاسْب[(٥)] وهي في غربِيّ وادِي جَيْحُون ومنها إلى المدينة العظمى مسافة نصف يوم[(٦)] وخُبّرتُ أنّ بها امرأة من نساء الشهداء رأت رؤيا كأنّها أُطعمت في منامها شيئًا فهي لا تأكل شيئًا ولا تشرب منذ عهد أبي العباس بن طاهر والِي خراسان وكان تُوُفّيَ قبل ذلك بثمان سنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)] ثم مررت بتلك المدينة سنة اثنتين وأربعين ومائتين[(٨)] فرأيتها وحدّثتني بحديثها فلم أستقصِ عليها[(٩)] لحداثة سنّي ثم إنّي عدت إلى

(١) أي تحقَّقنا منه.

(٢) معناه يحبّب إلى النّاس الشهادة في سبيل الله.

(٣) المعنى أن مما يزيد بالشّهادة لصحَّة هذه الآية التي تثبت أن الشُّهداء أحياء يرزقون أي يأكلون ويشربون بعد أن يقتلوا لأن أجسادهم تحيا في القبر لأن أثر الرُّوح يعود إليها.

(٤) سورة ءال عمران/الآية (١٦٩ - ١٧٠).

(٥) قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٤٠٤) «معناها بالفارسية ألفُ فرس».

(٦) أي بينها وبين عاصمة تلك النَّاحية نصف يوم.

(٧) أبو العبّاس بن طاهر كان حاكمًا في خراسان من قبل العبّاسيّين. الخليفة العباسيّ كان حاكمًا في ذلك الزمن.

(٨) يعني بعدَ أربع سنواتٍ.

(٩) يَعني ما تتبَّعْتُ خَبرَها إنّما هي حدَّثَتْنى لكن أنا لم أبْحَث مَعها في أمْرها.

خوارزم في ءاخر سنة اثنتين وخمسين ومائتين فرأيتها باقيةً ووجدت حديثها شائعًا مستفيضًا[١]. وهذه المدينة على مَدْرجةِ القوافل[٢] وكان الكثير ممن نزلها إذا بلغهم قصتها أحبوا أن ينظروا إليها[٣] فلا يسألون عنها رجلًا ولا امرأة ولا غلامًا إلا عرفها ودل عليها[٤] فلما وافيتُ الناحية طلبتُها فوجدتُها غائبةً على عدّةِ فراسخَ فمضيتُ في أثَرِها[٥] من قرية إلى قرية فأدركتها بين قريتين تَمْشِي مِشيةً قوية فإذا هي امرأة نَصَفٌ[٦] جيدة القامة حسنة الثديّة ظاهرة الدم متورّدة الْخَدَّين ذكية الفؤاد[٧] فسايرتنِي[٨] وأنا راكب، فعرضت عليها مركبًا فلم تركبه[٩] وأقبلت تمشي معي بقوة[١٠]، وحضر مجلسِي قوم من التجار والدّهَاقين وفيهم فقيه يسمّى محمدَ بنَ حمدويهِ

(١) يعني بعدَ أن مَضَى أكثرُ من عَشْرِ سنَواتٍ من سَمَاعِ خبَرِها مرَّ هذا الشّيخ الطَّهْمَانيُّ فَوَجَدَ خبرَها مُستفِيْضًا أي ظَاهِرًا بينَ النّاسِ منتشِرًا مشهورًا، أي شاعَ بينَ النّاسِ أنَّها لا تَأْكُلُ ولا تَشْرَبُ.
(٢) أي المسافرونَ يمرُّون بها.
(٣) أي الذينَ ينزلون إلى تلكَ البلدة ويَسمَعُون خبَرَها يُريدونَ أن يرَوْها ويتَحقَّقُوا من هذا الأمر.
(٤) مَعْناهُ أهلُ البلَدِ يعرفُونها، الذّكُورُ والإنَاث يَعرِفُونَها ويَدُلُّون علَيها.
(٥) يَعني لمّا علِمتُ أنّها مسَافِرةٌ إلى مَسافةِ عِدّةِ فَراسخَ مَضَيتُ في أثَرِها، والفرسَخُ الواحِدُ ثلاثَةُ أميالٍ أي مَسافةُ ساعةٍ ونِصفٍ مَشْيًا تَقريبًا.
(٦) معنَاهُ عُمرُها مُتَوَسّطٌ أي نحوُ الثَّلاثينَ.
(٧) يَعني لبِيْبَة.
(٨) مَعْناهُ سَارَتْ معي.
(٩) معناه هو راكبٌ وهي ماشيةٌ، فعرَض علَيها مَركَبًا أي دَابّةً تركَبُها فلَم تَقْبَل.
(١٠) أي مَشيُها كان مِشيَةَ إنسانٍ قَويّ.

الحارثيَّ[(١)] وقد كتب عنه موسى بن هارون البزّار بمكة[(٢)] كهلٌ له عبادة ورواية للحديث، وشاب حسنٌ يسمى عبد الله بن عبد الرحمٰن وكان يُحَلّفُ أصحاب المظالم بناحيته[(٣)] فسألتهم عنها فأحسنوا الثناء عليها وقالوا عنها خيرًا وقالوا إنّ أمرها ظاهر عندنا فليس فينا من يختلف فيها، قال المسمّى عبد الله بن عبد الرحمٰن أنا أسمع حديثها منذ أيامِ الْحَدَاثَةِ[(٤)] ونشأت والناس يتفاوضون في خبرها وقد فرَّغت بالِي لها وشغلت نفسي بالاستقصاء عليها فلم أرَ إلا سَترًا وعفافًا[(٥)] ولم أعثر لها على كذب في دعواها ولا حيلة في التلبيس، وذكر أن من كان يلِي خوارزمَ من العمال[(٦)] كانوا فيما خلا يستحضرونَها ويَحْضُرُونَها الشهر والشهرين والأكثر في بيت يغلقونه عليها[(٧)] ويوكّلون من يراعيها[(٨)] فلا يرونها تأكل ولا تشرب، ولا يَجِدُونَ لها أثرَ بولٍ ولا غائطٍ فيَبَرُّونَها[(٩)] ويَكسُونَها[(١٠)] ويُخلون سبيلها[(١١)] فلما

---

(١) أي كانَ في هذا المجلِس عالم اسمُه محمدُ بن حَمدَوَيه.
(٢) موسى بنُ هارونَ كانَ أخذَ عن هذا الفَقيهِ علمَ الحدِيْثِ، معناهُ أنّه كانَ مِنْ عُلماءِ عِلْم الحدِيْثِ.
(٣) أي أنه كانَ موظَّفًا يُحَلّفُ أصْحابَ الشَّكاوى.
(٤) أي منذ الصّغر.
(٥) أي ما رأيتُ منها إلا شيئًا حسنًا.
(٦) أي الحكّام.
(٧) يعني يَحبسُونَها في مَكانٍ الشَّهْرَ والشَّهرَين وأكثرَ من ذلك حتَّى يتحقَّقُوا أنّها لا تأكُلُ ولا تشْرَبُ.
(٨) أي يوكّلونَ من يُراقبُ هلْ يَأخذُ لها أحَدٌ طَعامًا وشرابًا.
(٩) أي يُحسِنُون إليها.
(١٠) أي يُعْطونَها اللِّباس.
(١١) أي يتركونها.

تواطَأَ أهل الناحية على تصديقها استقصصتُها عن حديثها وسألتها عن اسمها وشأنِها كلّه فذكرت أن اسمها رحمة بنت إبراهيم وأنّه كان لها زوج نجار فقير معيشته من عمل يده يأتيه رزقه يومًا فيومًا[١] لا فضل في كسبه عن قوت أهله وأنّها ولدت له عدّة أولاد، وجاء الأقطع ملك الترك[٢] إلى القرية فعبر الوادي عند جموده إلينا في زُهاء ثلاثة ءالاف فارس[٣] وأهل خوارزم يدعونه كَسرى. قال أبو العباس والأقطعُ هذا كان كافرًا عاتيًا[٤] شديد العداوة للمسلمين[٥] قد أثَّر على أهل الثُّغور[٦] وألح على أهل خوارزم بالسبي والقتل والغارات وكان ولاة خراسان يتألفونه وأشباهَهُ من عظماءِ الأعاجم ليكفوا غاراتهم عن الرعية ويحقِنوا دماء المسلمين[٧] فيبعثون إلى كل واحد منهم بأموال وألطاف كثيرة وأنواع من فاخر الثياب[٨] وإنّ هذا الكافر استاءَ في بعض السنين على السلطان ولا أدرِي لم ذاك أستبطأ المبارَّ عن وقتها أم اسْتَقَلَّ ما بُعِثَ إليه في جنب ما بعث إلى نظرائه من الملوك[٩] فأقبل في جنوده واسْتَعْرَضَ

(١) أي كانَ يُحصّلُ مَصْرُوفَ يوم ثمَّ مَصرُوفَ اليوم الذي بَعْدَهُ كُلَّ يَومٍ بيَومِه.
(٢) وكان هؤلاء كفارًا في ذلك الوقت.
(٣) أي في قَدْرِ ثلاثةِ ءالافِ مُقاتِلٍ جاءَ إليهم لمّا كانَ النَّهرُ جَمَدَ في الشتاء، لأنَّ هذا النَّهرَ في الشّتاءِ يصيرُ جامِدًا مثل الأرض يُمْشَى عليه.
(٤) أي متكبرًا شَدِيدَ الظُّلم.
(٥) أي يَكرَهُ المسلمينَ جدًّا.
(٦) أي على أهْلِ المواضِع التي تَلي جِهَةَ الكُفَّارِ.
(٧) أي كَانوا يُصَادِقُونه حتى لا يَعملَ هجُومًا فيقتُلَ المسلمينَ، لِيَحفَظُوا دِماءَ المسلمينَ.
(٨) أي كانُوا يُعطُونَهم منَ الأمْوالِ حتّى يَكُفُّوا شَرَّهُم عن المسلمينَ.
(٩) مَعناهُ أنَّ هذَا الكَافر استاءَ إمَّا لأنَّه انقطَع عنه ما كانُوا في الأوّلِ يُعْطُونه إيّاهُ أو استَقلَّ فقالَ كيفَ أعْطَوني هذا القدْرَ القَليلَ، لهذَا جَاءَ إلَيهم.

الطُّرُقَ[١] فعاثَ وأفسد وقتل ومثَّل فعجَز عنه خيولُ خوارزم وبلغَ خَبَرُهُ أبا العباس عبد الله بن طاهر رَحِمَهُ اللهُ فأَنْهَضَ إليه أربعة من القواد[٢] طاهرَ بن إبراهيم بن مُدْرِكٍ ويعقوب بن منصور بن طلحة وميكال مولى طاهر وهارونَ العيَّاض وشَحَنَ البلدَ بالعساكرِ والأسلحةِ ورتَّبَهُمْ في أرباع البلد كل في رُبع فحموا الحريم بإذن الله تعالى، ثم إنَّ واديَ جيحون وهو الذِي في أعلى نهر بَلْخ جَمَد لما اشتدَّ البَرْدُ وهو وادٍ عظيم شديد الطغيان كثير الآفات[٣] وإذا امتدَّ كان عرضه نحوًا من فرسخٍ وإذا جَمَد انطبق فلم يُوصَلْ منه إلى شيء حتى يُحفَرَ فيه كما تُحفرُ الآبارُ في الصُّخورِ وقد رأيتُ كِثَفَ الْجَمَدِ عشَرةَ أشبارٍ، وأُخبرت أنه كان فيما مضى يزيد على عشرين شبرًا وإذا هُوَ انطبقَ صارَ الْجَمَدُ جسرًا لأهل البلد تسير عليه العساكِرُ والعَجَلُ[٤] والقوافل فيَنظِمُ ما بين الشاطئين، وربّما دام الجمد مائة وعشرين يومًا وإذا قلّ البرْد في عام بَقِيَ سبعين يومًا إلى نحو ثلاثة أشهر.

قالت المرأة فعبر الكافر في خيله إلى باب الحصن وقد تحصّن الناس وضمُّوا أمتعتهم وصَبَّحُوا المسلمين[٥] وأضرُّوا بهم فحُصِر من ذلك أهل الناحية وأرادوا الخروج فمنعهم

---

(١) أي منع الناسَ من المرور.
(٢) أي أَرسَل إلَيه أرْبعةً من القُوَّادِ.
(٣) أي يُتلِفُ الزَّرع.
(٤) أي الحمُول.
(٥) أي هاجموهم صباحًا.

العاملُ(١) دون أن تتوافى عساكر السلطان وتتلاحقَ المتطوعةُ، فشدّ طائفة من شبّان الناس وأحداثهم فتقاربوا من السور بما أطاقوا حملَه من السلاح(٢) وحملوا على الكفرة فتهارج الكفرة(٣) واستجَرُّوهم من بين الأبنية والحيطان، فلمّا أصحروا كرَّ الترك عليهم(٤) وصار المسلمون في مثل الحَرَجَة(٥) فتحصّنوا واتخذوا دارة يحاربون من ورائها وانقطع ما بينهم وبين الحصن وبعُدت المعونة عنهم فحاربوا كأشدّ حرب وثبتوا حتى تقطّعت الأوتار والقِسِيُّ(٦) وأدركهم التعب ومسَّهم الجوع والعطش وقتل معظمهم وأُثخن الباقون بالجراحات(٧).

ولَمَّا جنّ عليهم الليل(٨) تَحاجز الفريقان(٩) قالَتِ المرأةُ ورُفعتِ النار على المناظر(١٠) ساعة عبور الكافر، فاتصل الخبر بالجرجانية وهي مدينة عظيمة في قاصية خوارزم(١١)، وكان

---

(١) أي الحاكمُ.
(٢) مَعناه أنّ المسلمينَ كانُوا مُسْتعِدّين للِقَاءِ هذَا الكافرِ، ثم بعضُ الشَّبابِ تَحمَّسُوا فتَقَدَّموا إليه لضَرْبِه.
(٣) أي تظاهروا بالخوف.
(٤) مَعناهُ لما صَارُوا في الصَّحْراءِ أي لما خرَجُوا إلى البَرّيّةِ كَرَّ علَيْهِمُ الكُفَّارُ وكان كثير من الترك لم يسلموا في ذلك الوقت.
(٥) الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة التي ترعى.
(٦) الأوْتارُ جَمْعُ وتَرٍ معروف يكون لِلقَوْس، والقِسِيُّ جَمعُ قَوسٍ.
(٧) مَعْناهُ ماتَ أكثَرُهُم والآخرونَ أُثْخِنُوا مَعناه أصَابَهم جِراحاتٌ شَدِيدةٌ ولكنْ لم يَمُوتُوا.
(٨) أيْ لما دخَل علَيهِمُ اللَّيلُ.
(٩) أي هؤلاءِ تَوقّفُوا عن هَؤلاءِ وهَؤلاءِ تَوقّفوا عن هؤلاءِ.
(١٠) أي على الأماكن المرتفعة.
(١١) أي في أطْرافِها.

ميكال مَوْلَى طاهرٍ بِها في عسكرٍ فخفَّ في الطلب(١) هيبة للأمير أبِي العبّاسِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ رَحِمَهُ اللهُ، وركض إلى هزاراسبَ في يوم وليلة أربعين فرسخًا بفراسخ خوارزم وفيها فضل كثير على فراسخ خراسان(٢)، وغدا التركُ للفراغ من أمر أولئك النفر(٣) فبينما هم كذلك إذ ارتفعت لهم الأعلام السود وسمعوا أصوات الطبول فأفرجوا عن القوم(٤)، ووافَى ميكالُ(٥) موضع المعركة فوارى القتلى وحَمَل الجرحى(٦)، قالتِ المرأةُ وأُدخلَ الْحِصْنَ علينا عشيةَ ذلك زُهاءُ أربعمائة جنازة فلم تَبْقَ دارٌ إلا حُمل إليها قتيل وعمّت المصيبة وارْتَجَّتِ الناحيةُ بالبكاء. قالت ووضع زوجِي بين يديَّ قتيلًا فأدركنِي من الجَزَع والهلع(٧) عليه ما يُدرك المرأة الشابّة على زوجها أبِي الأولاد، وكانت لنا عيالٌ. قالت فاجتمع النساء من قراباتِي والجيرانُ يُسْعِدْنَنِي على البكاء(٨)، وجاء الصبيان وهم أطفال لا يعقِلون من الأمر شيئًا(٩) يطلبون الخبزَ وليس عندي ما أُعطيهم فضِقتُ صدرًا بأمري ثم إني سمعت أذان المغرب ففزِعت إلى

(١) أي أسرع.
(٢) يَعني أن فراسخ خوارزم تَزِيْدُ علَى فَراسِخِ خراسان.
(٣) النَّفَر أي الجماعةِ.
(٤) مَعناه الكفّارُ هرَبُوا لما رَأَوا الجيشَ الإسْلاميَّ قَادِمًا.
(٥) أي حضَر مِيْكالُ.
(٦) أي ستر القَتْلَى الذينَ ماتُوا، والجرْحَى حَملَهُم منَ المكانِ الذي كانُوا فيه إلى مَكانِ المدَاوَاةِ.
(٧) أي الحزْنِ الشديد والبُكاءِ.
(٨) أي يُسَاعِدْنَني على الحُزْنِ أي يواسينها.
(٩) أي لا يُدْرِكونَ مَعنى هذهِ المصِيْبةِ.

الصلاة[١] فصليت ما قضى لِي ربّي ثمّ سجدت أدعو وأتضرع إلى الله تعالى وأسأله الصبر وأن يجبر يتم صبيانِي فذهب بِي النوم في سجودي فرأيت في منامي كأنّي في أرض خشناءَ ذات حجارة وأنا أطلب زوجِي، فنادانِي رجلٌ إلى أين أيتها الحرَّة قلت أطلب زوجِي، فقال خُذِي ذات اليمين، قالت فأخذتُ ذات اليمين فرُفع لِي أرض سهلة[٢] طيبة الريّ ظاهرة العشب وإذا قصور وأبنية لا أحفظ أن أصفها ولم أر مثلها[٣] وإذا أنهار تجري على وجه الأرض بغير أخاديد[٤] ليس لها حَافَاتٌ فانتهيت إلى قوم جلوسٍ حَلَقًا[٥] حلقًا عليهم ثياب خضرٌ قد علاهم النور فإذا هم الذين قتلوا في المعركة يأكلون على موائدَ بين أيديهم فجعلت أتخللُهم وأتصفح وجوههم[٦] أبغِي زوجِي لكي ينظرَنِي، فنادانِي يا رحمةُ يا رحمةُ فيمّمت الصوتَ[٧] فإذا به في مثل حال من رأيت من الشهداء وجهه مثل القمر ليلة البدر وهو يأكل مع رُفقةٍ له قتلوا يومئذٍ معه فقال لأصحابه إنّ هذه البائسة جائعة منذ اليوم أفتأذنون لِي أن أناولها شيئًا تأكله فأذنوا له فناولنِي كِسرة خبز[٨]. قالت وأنا أعلم حينئذٍ أنه خبز

(١) أيْ قُمتُ إلى الصّلاة ولجأتُ إليها، وهذه علامة على أنها تقية.
(٢) أي رأيتُ أرضًا سَهْلَةً.
(٣) أي لا أستطيعُ أنْ أصِفَها من حُسْنِها.
(٤) أي ليسَت في وِهَادٍ عَميقةٍ، إنَّما يؤخذُ منها الماءُ بسهولة.
(٥) معناهُ يَجلِسُون في دَوائرَ.
(٦) أي أتأمّلُها.
(٧) أي تَبِعْتُ وقصَدْتُ صَوْتَه.
(٨) أي قِطْعَةَ خُبزٍ.

ولكن لا أدرِي كيف يُخبز، هو أشد بياضًا من الثلج واللبن وأحلى من العسل والسكر وألين من الزبد والسمن[١]، فأكلته فلما استقرّ في جوفي قال اذهبِي كفاكِ الله مؤونة الطعام والشراب ما حييتِ في الدُّنْيا، فانتبهت من نومِي شبعَى رَيَّى لا أحتاج إلى طعام ولا شراب وما ذقتهما منذ ذلك اليوم إلى يومِي هذا ولا شيئًا يأكله الناس. وقال أبو العبّاس وكانت تحضُرنا وكنّا نأكلُ فتتنحَّى وتأخذ على أنفها تزعم أنّها تتأذّى من رائحة الطعام، فسألتها أتتغذّى بشىءٍ أو تشرب شيئًا غيرَ الماءِ فقالت لا، فسألتها هل يخرج منها ريحٌ أو أذًى كما يخرج من الناس قالت لا عهد لي بالأذى منذ ذلك الزمان، قلت والحيض أظنها قالت انقطع بانقطاع الطُّعم[٢]، قلت هل تحتاجين حاجة النساء إلى الرّجال قالت أما تستحِي منّي تسألنِي عن مثل هذا، قلت إنّي لَعَلّي أحدّث الناس عنكِ ولا بدّ أن أستقصي، قالت لا أحتاج، قلت فتنامين قالت نعم أطيب نوم، قلت فما ترَين في منامِكِ قالت مثل ما ترون، قلت فتجدينَ لفقد الطعام وَهنًا في نفسِكِ قالت ما أحسستُ بجوع منذ طعِمت ذلك الطعام وكانت تقبل الصدقة فقلت لها ما تصنعين بها قالت أكتسي وأكسو ولدِي، قلت فهل تجدين البرد وتتأذين بالحرّ قالت نعم، قلت فهل تدرين كَلَلَ اللُّغوب والإعياء[٣] إذا مَشَيْتِ قالت نعم ألست من البشر، قلت فتتوضئين للصلاة قالت

---

(١) أي طَراوتُه أشدّ مِنَ طراوة الزُّبد والسَّمْن.

(٢) أي الطّعَام.

(٣) أي التعب.

نعم، قلت لِمَ قالت أمرَنِي الفقهاء بذلك، قلت إنهم أفتَوها على حديث «**لا وضوء إلا من حدثٍ أو نومٍ**»، وذكرتْ لِي أنّ بطنها لاصق بظهرها، فأمرت امرأة من نسائنا فنظرت[1] فإذا بطنُها كما وصفتْ وإذا قد اتخذت كيسًا فضمّت القطن وشدّته على بطنها كي لا ينقصِف ظهرُها إذا مشت، ثم لم أزل أختلف إلى هزاراسبَ بين السنتين والثلاث فتحضرنِي فأعيد مسألتها فلا تَزيد ولا تنقُص، وعرضت كلامها على عبد الله بن عبد الرحمٰن الفقيه، فقال أنا أسمع هذا الكلام منذ نشأتُ فلا أجد من يدفعه أو يزعم أنه سمع أنها تأكل أو تشرب أو تتغوط[2] اهـ

فهذه القصة فيها أن لا تلازمَ عقليٌّ بين فُقدانِ الأكل وبين المرض وذهاب الصحة وانهدام البُنية وكذلك سائر الأسباب العادية يصحُّ عقلًا أن تتخلّف مفعولاتُها وأنّ الأشياء بمشيئة الله تعالى، وأنّ الشهداء لهم حياة برزخيّة. فسبحان القدير على كل شىء.

---

(١) أي إلى غير العورة.

(٢) قال الذهبي في السير (١٣/ ٥٧٢) «وهذه حكاية صحيحة فسبحان القادر على كل شىء».

تنبيهٌ مهمٌّ

لا يُعْفَى الجاهلُ مما ذكرناه مِنَ الأُصُولِ ولا يُعْذَرُ في ما يقع منه من الكفر لعدم اهتمامه بالدّين.

ولو كان الجهل يُسقط المؤاخذة لكان الجهلُ خيرًا من العلم وهذا خلاف قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) إلا أنَّ من كان قريب عهد بإسلام ونحوَه لا يكفر بإنكار فرضية الصلاة وتحريم الخمر ونحو ذلك إن لم يكن سمع أنَّ هذا دين الإسلامِ.

والفرضُ الأولُ في حق الأهل تعليمهم أصول العقيدة كي لا يقعوا في الكفر بجهلهم بالعقيدة فإن اعتقدُوا أنَّ الله جسمٌ نورانِيٌّ أبيضُ أو نحوَ ذلك فاستمروا بعد البلوغ على ذلك فماتوا عليه خُلّدُوا في النار نتيجة اعتقاداتِهم الفاسدةِ.

قال الفضيلُ بنُ عياض(٢) «لا يغرنَّك كثرة الهالكين»، فهل هذا الجهل في العقيدة هو نتيجةُ محبة الأهل لأبنائهم وقد قال الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾(٣). وجاء في تفسير الآية أي وما خلق الله الجن والإنس إلا ليأمرهم بعبادته.

وبعد أن جاءنا الهدى وهو الرسول ﷺ وقامت علينا الحجة به فلا عذر لنا، قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾(٤).

---

(١) سورة الزمر/الآية (٩).
(٢) ذكره النووي في كتاب الأذكار (ص/١١٨).
(٣) سورة الذاريات/الآية (٥٦).
(٤) سورة الإسراء/الآية (١٥).

النُّبُوَّةُ

اشتقاقها من النبإ أي الخبر لأنّ النبوة إخبار عن الله أو من النَّبْوَةِ وهي الرفعة، فالنبيُّ على الأول فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر عن الله بما يوحى إليه، أو فعيل بمعنى مفعول أي مخبَرٌ عن الله أي يخبره الملَك عن الله، فالنبوة جائزةٌ عقلًا ليستْ مستحيلةً.

وإنَّ اللهَ تعالى بعث الأنبياءَ رحمة للعباد إذ ليس في العقلِ ما يستغنِي به عنهم لأنّ العقل لا يستقلُّ بمعرفة الأشياء المنجية في الآخرة، ففِي بِعثةِ الأنبياءِ مصلحةٌ ضروريّة لحاجتهم لذلك، فالله متفضّلٌ بِها على عباده فهي سَفارة بين الحقّ تعالى وبين الخلق.

الفرقُ بين الأنبياء والرسل

اعْلَمْ أنَّ النَّبيَّ والرسولَ يشتركان في الوحيِ، فكلٌّ قد أَوْحَى الله إليه بشرع يعمل به لتبليغه للنَّاس، غير أنّ الرسول يأتِي بنسخِ بعضِ شرعِ مَنْ قَبْلَهُ أو بشرعٍ جديدٍ، والنبيُّ غيرُ الرسولِ يُوحَى إليه ليتبع شرع رسول قبله ولِيبلّغَهُ. فلذلك قال العلماء «كل رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولًا».

ثم أيضًا يفترقان في أنَّ الرسالةَ يوصف بها الملَكُ والبشر والنبوةَ لا تكون إلا في البشر.

ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم

يجب للأنبياء الصدق ويستحيل عليهم الكذب، وتجبُ لهم الفطانةُ ويستحيل عليهم البلادةُ والغباوة، وتجب لهم الأمانة.

فالأنبياء سالمون من الكفر والكبائر وصغائر الخسَّة وهذه هي العصمة الواجبة لهم، ويستحيل عليهم الخيانة، ويجب لهم الصيانة فيستحيل عليهم الرذالة والسفاهة والْجُبْنُ وكلّ ما يُنَفّرُ عن قبول الدعوةِ منهم، وكذلك يستحيل عليهم كل مرضٍ منفّرٍ.

فمن نسب إليهم الكذب أو الخيانة أو الرذالة أو السفاهة أو الجبن أو نحو ذلك فقد كفر.

المعجِزَةُ

اعلمْ أنَّ السَّبيلَ إلى مَعرِفَةِ النَّبيّ المعجزةُ وهي أمرٌ خارقٌ للعادةِ يأتِي على وَفقِ دعوى من ادَّعَوا النُّبوةَ سالمٌ من المعارضة بالمثل.

فما كان من الأمور عجيبًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزة.

وكذلك ما كان خارقًا لكنّه لم يقترن بدعوى النبوّة كالخوارق التي تظهر على أيدي الأولياء أتباع الأنبياء فإنّه ليس بمعجزةٍ بل يُسَمَّى كرامة.

وكذلك ليس من المعجزة ما يُستطاع معارضتُه بالمثل كالسّحر فإنّه يُعارضُ بسحرٍ مثلِه.

والمعجزة قسمان قسم يقع بعد اقتراح من الناسِ على الذي ادّعى النبوَّةَ، وقسم يقع من غير اقتراح.

فالأوَّل نحو ناقة صالح التي خرجت من الصّخرة. اقترح قومه عليه ذلك بقولهم إن كنت نبيًّا مبعوثًا إلينا لنؤمن بك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة وفصيلها فأخرج لهم ناقة معها فصيلُها أي ولدها فاندهشوا فآمنوا به لأنه لو كان كاذبًا في قوله إنّ الله أرسله لم يأتِ بهذا الأمر العجيب الخارق للعادة الذي لم يستطع أحد من الناس أن يعارضه بمثل ما أتى به، فثبتتِ الحجةُ عليهم ولا يسعُهم إلا الإذعان والتصديق لأنّ العقلَ يوجب تصديق من أتى بمثل هذا الأمر الذي لا يُستطاع معارضته بالمثل من قِبَلِ المعارضين، فمن لم يذعن وعاند يُعدُّ مهدِرًا لقيمة البرهان العقليّ.

من المعجزات التي حصلت لمن قبل سيدنا محمد ﷺ

ومن أمثلة المعجزات التي حصلت لمن قبل محمد ﷺ عدم تأثير النار العظيمة على إبراهيم ﷺ حيث لم تُحرقْه ولا ثيابَه.

ومنها انقلابُ عصا موسى ثُعبانًا حقيقيًّا ثم عودُها إلى حالتِها بعد أن اعترف السحرة الذين أحضرهم فرعون لمعارضته وأذعنوا فآمنوا بالله وكفروا بفرعون واعترفوا لِمُوسى بأنّه صادق في ما جاء به.

ومنها ما ظهر للمسيح من إحياء الموتى وذلك أيضًا لا يُستطاع معارضته بالمثل فلم تستطع اليهود الذين كانوا مولعين بتكذيبه وحريصين على الافتراء عليه أن يعارضوه بالمثل.

وقد أتى أيضًا بعجيبة أخرى عظيمة وهي إبراءُ الأَكْمَهِ فلم يستطع أحد من أهل عصره معارضته بالمثل مع توفُّر الطبّ في ذلك العصر، فذلك دليلٌ على صدقِه في كلّ ما يخبر به من وجوبِ عبادةِ الخالقِ وحده من غير إشراك به ووجوب متابعته في الأعمال التي يأمرهم بها.

من معجزاته ﷺ

وأمّا محمدٌ ﷺ فمن معجزاته صلى الله عليه وعلى جميع إخوانه الأنبياء وسلم حنينُ الجذعِ، وذلك أنّ النبيَّ[1] ﷺ كان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام.

يستند حين يخطب إلى جذع نخل في مسجده قبل أن يُعمل له المنبر، فلما عمل له المنبر صعِد ﷺ عليه فبدأ بالخطبة وهو قائم على المنبر فحنَّ الجذع حتى سمع حنينه مَنْ في المسجد فَنَزَلَ رسول الله ﷺ فالتزمه أي ضمَّه واعتنقه فسكت.

ومن معجزاته ﷺ إنطاق العجماء أي البهيمة. روى الإمام أحمد(١) والبيهقيُّ(٢) بإسنادٍ صحيحٍ(٣) من حديث يَعْلَى بنِ مُرَّةَ الثَّقَفِيّ قال بينما نسير مع النبيّ ﷺ إذْ مَرَّ بنا بعير يُسْنَى عليه(٤) فلمَّا رءاه البعير جرجر(٥) فوضع جِرَانَهُ(٦) فوقف عليه النبيّ ﷺ، فقال «**أين صاحب هذا البعير**» فجاءه فقال «**بعنيه**»، فقال بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله وإنّه لأهل بيت ما لَهُمْ معيشةٌ غيره فقال النبيُّ «**أمّا ما ذكرتَ من أمره فإنّه شكا كثرة العمل وقلة العلف فأحسنوا إليه**».

وأخرج ابنُ شاهينَ في دلائل النبوة عن عبد الله بن جعفر قال أردفنِي رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم خَلْفَهُ فدخل حائطَ(٧) رجل من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النَّبي ﷺ حنَّ فذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ(٨) فسكن، ثم قال «**من رب هذا**

(١) مسند أحمد بن حنبل (٤/ ١٧٣).
(٢) دلائل النبوة (٦/ ٢٣).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٨) وقال «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
(٤) أي يُحملُ عليه الماء.
(٥) أي أصدرَ صوتًا من حلقه.
(٦) أي مقدَّم عنقه.
(٧) أي بستان.
(٨) في النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٦١) «ذفرى البعير أصل أذنه وهما ذفريان».

الجمل» فجاء فتى من الأنصار، فقال هذا لِي، فقال «**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها فإنّه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه**[١]». وهو حديث صحيح كما قال المحدّث مرتضى الزَّبِيديُّ في شرح إحياء علوم الدين[٢].

ومنها تَفَجّرُ[٣] الماء من بين أصابعه بالمشاهدة في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعيّ المستفاد من التواتر المعنويّ[٤] ولم يحصلْ لغير نبينا حيث نبعَ من عظمه وعصبه ولحمه ودمه وهو أبلغُ من تفجُّر المياه من الحجر الذي ضربه موسى لأنَّ خروج الماء من الحجارة معهود بِخِلافِهِ مِنْ بينِ اللَّحْمِ والدَّمِ. رواه جابرٌ وأنسٌ وابن مسعود وابن عباس وأبو ليلى الأنصاري وأبو رافع.

وقد أخرج الشيخان[٥] من حديث أنس «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوَضُوء[٦] فلم يجدوه فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوَضوء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يَتَوَضَّئُوا منه فرأيت الماءَ ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ ءاخرِهِمْ».

---

(١) أي تتعبه.

(٢) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٠٦).

(٣) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٠٧).

(٤) الذي تواتر معناه ولم يتفق رواته على لفظ واحد، انظر فتح الباري (٦/ ٥٨٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب في معجزات النبي.

(٦) أي طلبوا ماء الوضوء.

وفي روايةٍ للبخاريّ[١] قال الراوِي لأنس كم كنتم قال «ثلاثمائة».

ورَوَى البخاريّ ومسلم[٢] من حديث جابرٍ أيضًا «عطش الناس يوم الحديبية وكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها فجَهَش الناسُ[٣] فقال «**ما لكم**» فقالوا يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا ما نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، فقيل كم كنتم قال لو كنّا مائة ألف لكفانا كنّا خمس عشرة مائة».

والتحقيق أنّ الماء كان ينبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع وبه صرح النوويُّ في شرح مسلم[٤] ويُؤَيّدُهُ قولُ جابرٍ[٥] «فرأيتُ الماء يخرج» وفي رواية «ينبع من بين أصابعه»[٦].

ومن معجزاته ردُّ عينِ قَتادةَ بعد انقلاعها، فقد روى البيهقيُّ في الدلائل[٧] عن قَتادة بن النعمان أنّه أُصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام.
(٣) أي أقبلوا إليه.
(٤) شرح النووي على مسلم (٧/ ٣٨).
(٥) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٥٨).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام.
(٧) دلائل النبوة (٣/ ١٠٠).

رسولَ الله فقال «لا»، فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدرِي أيُّ عينيه أُصيبت اهـ

وفي هاتين المعجزتين قال بعض المادحين [شعرًا من البسيط]

إن كان موسى سقى الأسباطَ من حَجَرٍ
فإنَّ في الكفّ معنًى ليس في الحجرِ
إن كان عيسى بَرَا[1] الأعمى بدعوتِهِ
فكم براحته قد ردّ من بَصَرِ

ومن معجزاته ﷺ تسبيح الطعام في يده أخرج البخاريُّ[2] من حديث ابن مسعود قال «كنّا نأكل مع النبيّ ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام».

وهذه المعجزة أعجب من إحياء الموتى الذي هو إحدى معجزات المسيح.

ومن معجزاته ﷺ الإسراء والمعراج

الإسراء ثبت بنص القرءان والحديث[3] الصحيح فيجب الإيمان بأنه ﷺ أسرى الله به ليلًا من مكة إلى المسجد الأقصى.

---

(١) برا أصله برأ بهمزةٍ مفتوحة فعل لازم ثم تركت الهمزة للوزن، والمعنى تعافى الأعمى بدعوة المسيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان كتاب الإسراء (١/١٢٧ - ١٣٥)، وكتاب الجنائز (٤/٢٤٧).

وأما المعراج فقد ثبت بنص الأحاديث[١]. وأما القرءان فلم ينص عليه نصًّا صريحًا لا يحتمل تأويلًا لكنه ورد فيه ما يكاد يكون نصًّا صريحًا.

فالإسراء قد جاء فيه قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۝١﴾[٢].

أما المعراج فقد ورد فيه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾[٣] فإن قيل قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ يحتمل أن يكون رؤية منامية، قلنا هذا تأويل ولا يسوغ تأويل النص أي إخراجه عن ظاهره لغير دليل عقليّ قاطع أو سمعيّ ثابت كما قاله الرازيُّ في «المحصول»[٤]. وليس هنا دليلٌ على ذلك.

وقد روى مسلمٌ[٥] عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**أُتِيتُ بالبُراق**[٦] **وهو دابةٌ أبيض طويلٌ فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه**[٧]، قال **فركبته حتى**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء.

(٢) سورة الإسراء/الآية (١).

(٣) سورة النجم/الآية (١٣ - ١٥).

(٤) المحصول (٤/ ٤٢٧ - ٤٢٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الإسراء.

(٦) وهوَ من دَوابّ الجنَّةِ.

(٧) أي حيثُ يصل نظرهُ يضع رجْلَه، كلّ خَطوة من خطواته تسع إلى مدّ البصر، أمر البراق من العجائب المخالفة للعادة.

أتيتُ بيتَ المقدس فربطته بالحَلْقة التي يربط بها الأنبياء، قال **ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر**[(١)] **وإناءٍ من لَبَنٍ**[(٢)] **فاخترتُ اللَّبَنَ، فقال جبريل عليه السلام «اخترتَ الفطرةَ**[(٣)]» قال **ثم عَرَجَ بنا إلى السماء**» إلى ءاخر الحديث.

وفي الحديث دليل على أن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة بروحه وجسده يقظةً إذ لم يَقُلْ أحدٌ إنه وصل إلى بيت المقدس ثم نام.

رؤية الرسول لربه بقلبه لا ببصره في تلك الليلة

أما رؤيةُ النبيّ لِرَبّهِ ليلة المعراج فقد روى الطبرانِيُّ في المعجم الأوسط[(٤)] بإسنادٍ قويّ كما قال الحافظ ابن حجر[(٥)] عن ابن عباس رضي الله عنهما «رأى محمدٌ ربَّهُ مرتين».

وروى ابنُ خزيمةَ بإسنادٍ قويّ[(٦)] «رأى محمد ربه[(٧)]».

والمراد أنه رءاه بقلبِهِ بدليل حديث مسلم[(٨)] من طريق أبي

(١) أي من خمرِ الجنَّة اللذيذ الذي لا يُسْكِرُ ولا يُصْدِعُ الرأسَ.
(٢) أي حليب.
(٣) أي تمسَّكْتَ بالدِينِ.
(٤) المعجم الأوسط (٦/ ١٠٥).
(٥) فتح الباري (٨/ ٦٠٧).
(٦) عزاه الحافظ ابن حجر لابن خزيمة وقوَّى إسناده، انظر فتح الباري (٨/ ٦٠٨).
(٧) هذا قول ابن عباس رضي الله عنه. رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرءان باب ومن سورة النجم.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معنى قول الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [سورة النجم].

العالية عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾[1]، قال «رأى ربه بفؤاده مرتين».

تنبيهٌ. قال الغزالِيُّ في إحياء علوم الدين[2] «الصحيح أن النبيّ لم ير ربَّه ليلة المعراج»، ومراده أنه لم يره بعينه إذ لم يثبت أن النبيّ ﷺ قال رأيته بعيني ولا أن أحدًا من الصحابة قال رءاه بعيني رأسه.

وجهُ دلالةِ المعجزةِ على صدقِ النبيّ

الأمرُ الخارق الذي يظهر على يد من ادعَوُا النُّبُوَّةَ مع التحدّي[3] مع عدم معارضته بالمثل نازلٌ منْزِلةَ قول الله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني، أي لولا أنه صادقٌ في دعواه لما أظهر الله له هذه المعجزة، فكأن الله تعالى قال صدق عبدي هذا الذي ادعى النبوة في دعواه لأني أظهرت له هذه المعجزة لأن الذي يصدّق الكاذب كاذبٌ والله يستحيل عليه الكذب، فدل ذلك على أن الله إنما خلقه لتصديقه، إذْ كلُّ عاقلٍ يعلم أن إحياء الموتى وقلب العصا ثعبانًا وإخراج ناقةٍ من صخرةٍ صمَّاءَ ليس بمعتاد.

---

(١) سورة النجم/الآية (١١ - ١٣).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٠).

(٣) أي مع كونه صالحًا للتحدي.

السبيل إلى العلم بالمعجزة بالقطع واليقين

العلمُ بالمعجزاتِ يَحصلُ بالمشاهدة لمن شاهدوها، وببلوغ خبرها بطريق التواتر في حقّ مَنْ لَمْ يَشهدها وذلك كعلمنا بالبلدان النائية والحوادث التاريخية الثابتة الواقعة لِمَنْ قَبْلَنَا من الملوك والأمم، والخبر المتواتر يقوم مقام المشاهدة، فوجب الإذعان لمن أتى بها عقلًا كما أنه واجبٌ شرعًا.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله

قال الله تعالى ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾[(١)]، وقال تعالى ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[(٢)]، فهاتان الآيتان واردتان في عذاب القبر للكفار، وأما عصاة المسلمين من أهل الكبائر الذين ماتوا قبل التوبة فهم صنفان صنف يُعفيهِمُ اللهُ من عذاب القبر وصنفٌ يعذبُهم ثم ينقطع عنهم ويُؤخّر لهم بقية عذابهم إلى الآخرة.

فقد روى البخاريُّ[(٣)] ومسلمٌ[(٤)] والترمذيُّ[(٥)] وأبو داود[(٦)]

(١) سورة غافر/الآية (٤٦).
(٢) سورة طه/الآية (١٢٤).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء باب ما جاء في غسل البول.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الطهارة باب ما جاء في التشديد في البول، وقال «حديث حسن صحيح».
(٦) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب الاستبراء من البول.

والنَّسَائيُّ[١] عن ابن عباس مَرَّ رسولُ اللهِ على قبرين فقال «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير إثمٍ**»، قال «**بلى، أما أحدهما فكان يَمشِي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من البول**» ثم دعا بعسيبٍ رطبٍ فشقه اثنين فغرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا، ثم قال «**لعله يخفف عنهما**».

واعلمْ أنه ثبتَ في الأخبار الصحيحة عودُ الروح إلى الجسد في القبر كحديث البراء بن عازبٍ الذي رواه الحاكم[٢] والبيهقيُّ[٣] وأبو عَوانة وصَحَّحَهُ غيرُ واحدٍ، وحديث ابن عباس مرفوعًا «**ما مِنْ أحدٍ يمرُّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلّمُ عليه إلا عرفه وردَّ عليه السلام**». رواه ابنُ عبدِ البَرّ وعبد الحق الإشبيليُّ وصححه[٤].

فيستلزم ذلك رجوعَ الروحِ إلى البدن كله وذلك ظاهر الحديث أو إلى بعضه. ويتأكد عود الحياة في القبر إلى الجسد مزيد تأكّد في حق الأنبياء، فإنه ورد من حديث أنسٍ عن النبيّ ﷺ «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**» صححه البيهقيُّ وأقره الحافظُ[٥].

ورَوَى البخاريُّ ومسلمٌ[٦] عن أنسٍ عن النبيّ ﷺ أنه قال «**إن**

---

(١) أخرجه النسائي في سننه كتاب الجنائز باب وضع الجريدة على القبر.
(٢) المستدرك (١/ ٣٧) وسكت عنه الحاكم والذهبي.
(٣) شعب الإيمان (١/ ٣٥٧).
(٤) انظر الاستذكار (١/ ٢٣٤) والأحكام الشرعية (٢/ ٥٤٦).
(٥) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٨٧) أن البيهقي أورد هذا الحديث في كتابه حياة الأنبياء وأنه صححه ثم أقره على ذلك.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت.

العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولَّى عنه أصحابُهُ وإنَّهُ لَيَسْمَعُ قرعَ نِعالِهِمْ إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا. وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ثم يُضْرَبُ بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثَّقَلَينِ».

وعن عبد الله بن عمرو[1] أن رسول الله ﷺ ذَكَرَ فَتَّانَي القبرِ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتردُّ علينا عقولنا يا رسول الله قال «**نعم كهيئتكم اليوم**»، قال فبفيه الحجرُ.

وعن أبي هريرة[2] رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «**إذا قُبِرَ الميّتُ أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يُقال لأحدِهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمدٍ فهو قائل ما كان يقول. فإن كان مؤمنًا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فيقولان له إن كنا لنعلم أنك لتقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعين ذراعًا في سبعين ذراعًا ويُنَوَّرُ له فيه، فيُقال له نم، فينام كنوم العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله حتى يبعثه الله من مَضْجَعِهِ ذلك. فإن كان منافقًا قال لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون شيئًا فكنت أقوله، فيقولان له إن كنا لنعلم**

(١) مسند أحمد (٢/ ١٧٢). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٧) «ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر، وقال حسن غريب.

أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض التئمي فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال معذبًا حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك».

والحديثان رواهما ابن حبان(١) وصححهما، ففي الأول منهما إثبات عودِ الروحِ إلى الجسد في القبر والإحساسِ، وفي الثانِي إثبات استمرار الروح في القبر وإثبات النوم وذلك ما لم يَبْلَ الجسدُ.

وهذا النعيم للمؤمن القويّ وهو الذي يؤدي الفرائض ويجتنب المعاصِيَ، وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه «**الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة**»، حديث صحيح أخرجه ابن حبان(٢)، يعني المؤمنَ الكاملَ.

ثم إذا بَلِيَ الجسدُ كلُّه ولم يَبْقَ إلا عَجْبُ الذنب يكون روح المؤمن التقيّ في الجنة وتكون أرواح عصاة المسلمين أهل الكبائر الذين ماتوا بلا توبةٍ بعد بِلَى الجسد فيما بين السماء والأرض، وبعضهم في السماء الأولى. وتكون أرواح الكفار بعد بِلَى الجسد في سجين، وهو مكان في الأرض السفلى، وأما الشهداء فتصعد أرواحهم فورًا إلى الجنة.

تنبيهٌ. يُستثنى من السؤال النبيُّ والشهداءُ أي شهداءُ المعركةِ وكذلك الطفل أي الذي مات دون البلوغ.

---

(١) روى الحديث الأول ابن حبان في صحيحه انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٥/ ٤٩)، وكذا الثاني انظر الإحسان (٥/ ٤٨).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/ ٣٨).

فإن قيل كيف يمكن سؤال عدد كثير من الأموات فالجواب ما قال الحليميُّ[1] «إن الأشبه أن يكونَ ملائكةُ السؤال جماعةً كثيرة يسمَّى بعضهم منكرًا وبعضهم نكيرًا فَيُبْعَثُ إلى كل ميّتٍ اثنان منهم».

حكم منكر عذاب القبر

ويكفر منكر عذاب القبر لقول الله ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾[2] بخلاف منكر سؤاله فلا يكفر إلا أن يكون على وجه العناد.

البَعْثُ

البَعْثُ حَقٌّ، وهوَ خُروجُ الموتَى من القُبورِ بعد إعادَةِ الجسَدِ الذي أكلَهُ التُّرابُ إن كانَ منَ الأجسَادِ التي يأْكلُها التُّرابُ وهي أجسَادُ غَيرِ الأَنْبياءِ وشُهداءِ المعركةِ وبَعضِ الأولياءِ لِمَا تواتَرَ مِن مُشَاهدَةِ بعضِ الأولياءِ.

وأوَّلُ مَن يَنْشَقُّ عنهُ القَبرُ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وأهل مكّةَ والمدينةِ والطّائفِ من أوَّلِ من يُبْعَثُ.

الحَشْرُ

والحَشْرُ حَقٌّ، وهو أن يُجمَعُوا بعدَ البَعثِ إلى مكانٍ، ويكونُ على الأرْضِ المبدَّلَةِ، وهي أرضٌ مُستَوِيةٌ كالجِلْدِ المَشْدُودِ لا

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٤٨٩).

(٢) سورة غافر/الآية (٤٦).

جِبالَ فيها ولا وِدْيَانَ، أكْبَرُ وأَوْسَعُ منْ أَرضِنا هَذه بَيضاءُ كالفِضّةِ.

ويَكُونُ الحَشْرُ على ثلاثةِ أحْوالٍ

قِسْمٌ طَاعِمُونَ كَاسُونَ رَاكِبُونَ علَى نُوْقٍ رحَائِلُها مِن ذَهَبٍ وهُم الأَتْقِياءُ.

وقسمٌ حُفاةٌ عُراةٌ وهُم المسلمونَ من أهْلِ الكَبائرِ.

وقِسمٌ يُحشَرُونَ ويُجَرُّونَ على وجُوهِهم وهمُ الكفّارُ.

الحسَابُ

والحسَابُ حقٌّ، وهوَ عَرْضُ أعْمالِ العِبادِ علَيهم، ويكُونُ بتَكليم الله للعِبادِ جَمِيعِهم، فَيفهَمُونَ منْ كلامِ الله السُّؤالَ عمَّا فَعَلُوا بالنّعَم التي أعْطاهُمُ الله إيَّاها، فيُسَرُّ المؤمِنُ التَّقِيُّ ولا يُسَرُّ الكَافرُ لأنّه لا حَسَنَة لهُ في الآخرةِ بلْ يكادُ يَغشَاهُ الْمَوتُ، فقَد وَردَ في الحديثِ الصَّحيحِ «**مَا مِنكم من أحَدٍ إلا سَيُكلّمُهُ رَبُّهُ يَومَ القِيامَةِ لَيسَ بَينَهُ وبَينَهُ تَرْجُمَانٌ**» اهـ رواهُ أحمدُ والتّرمذِيُّ[(١)].

المِيْزانُ

والمِيْزانُ حَقٌّ، وهو كَمِيْزانِ الدُّنْيا لَهُ قَصَبَةٌ وعَمُودٌ وكفَّتانِ كَفّةٌ للحسَنَاتِ وكَفّةٌ للسَّيئاتِ تُوزَنُ بِهِ الأعْمالُ يَومَ القيامةِ، والذي يتَولَّى وزْنَها جِبْريلُ وميكَائيلُ، وما يُوزَنُ إنّما هوَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة باب ما في القيامة، وقال «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤).

الصّحائِفُ التي كُتِبَ عليها الحسَناتُ والسَّيئاتُ، فَمن رجَحَتْ حَسَناتُه على سَيّئاتِه فَهُو مِنَ أهْلِ النَّجاةِ، ومَنْ تسَاوَتْ حسَناتُه وسيّئاتُه فهوَ مِن أهل النَّجاةِ أيضًا ولكِنَّهُ أقَلُّ رُتْبةً من الطَّبَقةِ الأُولَى وأَرفَعُ من الثَّالِثَةِ، ومنْ رَجَحَتْ سَيّئاتُه على حسَناتِه فَهُو تَحتَ مَشيْئةِ الله إن شَاءَ عذَّبَهُ وإن شَاءَ غَفَرَ لَهُ. وأمَّا الكافِرُ فتَرْجَحُ كفَةُ سَيئاتِه لا غير لأنَّهُ لا حسَنَاتِ[١] لهُ في الآخِرةِ لأَنَّه أُطْعِمَ بحسَناتِه في الدُّنْيا.

الثَّوابُ والعِقَابُ

الثَّوابُ عِنْدَ أهْلِ الحَقّ ليسَ بحَقّ للطَّائِعينَ واجِبٍ على الله، وإنَّما هُو فَضْلٌ مِنهُ وهُو الجَزاءُ الذي يُجْزَى به المؤْمِنُ مِمَّا يَسُرُّه في الآخِرَةِ.

والعِقَابُ لا يَجبُ علَى الله أيْضًا إيقَاعُه للعُصَاةِ، وإنَّما هوَ عدْلٌ مِنهُ، وهوَ ما يَسُوءُ العَبْدَ يَومَ القِيَامةِ.

وهُوَ على قِسْمَينِ أَكْبرَ وأصْغَرَ، فالعِقَابُ الأكْبرُ هوَ دُخولُ النّارِ والعِقابُ الأصْغَرُ ما سِوى ذلكَ كأذَى حَرّ الشَّمْسِ يَوْمَ القِيامَةِ فَإنَّها تُسَلّط علَى الكُفَّارِ فيَعرَقُونَ حتّى يَصِلَ عَرَقُ أحَدِهم إلى فِيهِ ولا يتَجَاوزُ عَرقُ هذَا الشَّخْصِ إلى شَخصٍ ءاخرَ بل يَقْتصرُ عليه حتّى يقُولَ الكافِرُ من شِدَّةِ ما يُقاسِي منها رَبّ أرِحْنِي ولَو إلى النَّارِ، ويَكونُ المؤمنُونَ الأَتْقياءُ تلكَ السَّاعَةَ

(١) يجوز فتح التاء وكسرها بلا تنوين في الحالين.

تحتَ ظِلّ العَرْشِ، وهذَا مَعنَى الحدِيثِ[١] «**سَبْعةٌ يُظِلُّهمُ الله في ظِلّهِ**»، أي في ظِلّ عَرْشِهِ.

الصّراطُ

والصّراطُ حَقٌّ، وهوَ جِسْرٌ عَريضٌ مَمدُودٌ علَى جَهنّمَ تَرِدُ عَليهِ الخلائِقُ، فمِنهُم مَن يَرِدُه ورُوْدَ دخُولٍ وهمُ الكفّارُ وبَعضُ عُصَاةِ المُسْلِمينَ، أي يَزِلُّونَ مِنهُ إلى جَهنَّمَ، ومنهُم من يَرِدُه ورُودَ مرُورٍ في هَوائِه، فمِن هؤلاءِ مَن يَمُرُّ كالبَرْقِ الخَاطِفِ، ومنهُم مَن يمُرُّ كطَرْفَةِ عَيْنٍ، وهوَ مَحمُولٌ على ظَاهرِه بغَيرِ تأويلٍ، وأحَدُ طرَفَيْهِ في الأَرضِ المُبَدَّلَةِ والآخَرُ فيما يَلِي الجَنّةَ، وقَد وَردَ في صِفَتِهِ أنّه «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ»[٢].

وَممّا وَردَ أنَّه أحَدُّ مِن السَّيفِ وأدَقُّ مِن الشَّعرَة كَما رَوى مُسلِمٌ[٣] عن أبِي سَعِيد الخُدْرِيّ «بلَغنِي أنَّهُ أدَقُّ مِنَ الشَّعْرةِ وأَحدُّ منَ السَّيْفِ» ولم يَرِدْ ذلك مرفوعًا إلى رسول الله، ولَيسَ المرادُ ظَاهِرَهُ بلْ هو عَريضٌ وإنَّما المرادُ بذلِكَ أنَّ خَطَرَهُ عظِيمٌ، فإنَّ يُسْرَ الْجَوازِ علَيه وعُسْرَهُ علَى قَدْرِ الطَّاعَاتِ والمعَاصِي ولا يَعْلَمُ حُدُودَ ذلِكَ إلا الله، فقد ورَدَ في الصَّحِيحِ[٤] أنَّهُ تَجرِي بِهم أعْمالُهم. معناه أنَّ أعمالَهم تصِيْرُ لهم قوَّةَ السَّيرِ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة.

(٢) و(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

الحَوضُ

والحَوضُ حَقٌّ، وهو مكانٌ أعَدَّ الله فيه شَرابًا لأَهْل الجنَّةِ يشْرَبُونَ مِنه قبلَ دخُولِ الجنّةِ وبَعدَ مُجاوزَةِ الصّرَاطِ، فَلِنبيّنا حوضٌ تَرِدُهُ أمّتُهُ فقط لا تَرِدُه أمَمُ غيرهِ طولُهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ وعَرضُهُ كَذَلِكَ، ءانِيَتُهُ كَعدَدِ نُجومِ السّماءِ، شَرابُه أبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وأحْلَى من العسَلِ وأطْيَبُ منْ رِيحِ المِسْكِ.

وقد أعد الله لكل نبيّ حوضًا وأكبر الأحواض حوض نبينا محمد ﷺ.

صفةُ الجنَّةِ

والجنَّةُ حَقٌّ فيَجِبُ الإيمانُ بِها وأنَّها مَخلُوقةٌ الآنَ كَما يُفهَم ذَلكَ من القُرءانِ والحَديثِ الصَّحيح[1]، وهي فَوقَ السَّماءِ السَابِعةِ[2] ليسَت متّصِلةً بها، وسَقْفُها عَرشُ الرَّحْمَنِ، وأهْلُها علَى صُورة أَبِيهم ءادمَ سِتُّونَ ذِراعًا طُولًا في سَبْعةِ أذرُعٍ عَرْضًا جمِيلُو الصُّورة، جُرْدٌ مُرْدٌ في عُمرِ ثَلاثةٍ وثَلاثِيْنَ عَامًا، خالِدُونَ فِيها لا يَخرجُونَ مِنها أبدًا. وقد صحَّ الحديثُ[3] بأنّ أهْلَ الجنّةِ على صُورة أبِيهِم ءادَمَ سِتّونَ ذِراعًا في السَّماءِ في سَبْعَةِ أذْرُعٍ عَرْضًا.

---

(١) كحديث «**دخلت الجنة فرأيت فيها دارًا وقصرًا**»، رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه.

(٢) كَما في الحَدِيث الصَّحيح الذي رَواهُ البَيهقيُّ في دلائل النبوة (٦/ ٢٣٢)، وقَال تَعالى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾ [سورة النجم]، أي عندَ سِدرَةِ المنتهَى.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق ءادم وذريته.

وقَالَ رسُولُ الله ﷺ في وَصْفِها «**هِيَ ورَبِّ الكَعْبةِ نُورٌ يتَلْألأُ ورَيْحَانَةٌ تَهتَزُّ، وقَصرٌ مَشِيدٌ ونَهرٌ مُطَّرِدٌ، وفَاكهةٌ كثيرةٌ نَضِيجَةٌ، وزَوجةٌ حَسناءُ جَميلةٌ، وحُلَلٌ كثيرةٌ في مُقَامٍ أبَدِيّ في حَبْرَةٍ ونَضْرَةٍ**» رواهُ ابنُ حبان(١).

صفةُ جهنَّمَ

والنَّارُ حَقٌّ، يَجِبُ الإيْمانُ بها وبأنَّها مَخلُوقَةٌ الآنَ كَما يُفْهَم ذلِكَ منَ الآيَاتِ والأحادِيثِ الصّحيحةِ، وهِيَ مَكانٌ أعَدَّهُ الله لعَذابِ الكُفَّارِ الذي لا ينتهِي أبدًا وبعضِ عصاة المسلمين، ومَكانُها تَحْتَ الأرْضِ السَّابعةِ مِن غَيرِ أن تَكُونَ مُتَّصِلةً بها.

ويَزِيْدُ اللهُ في حَجْمِ الكَافِرِ في النّارِ لِيَزْدَادَ عَذَابًا حَتّى يكونَ ضِرْسُه كجبَلِ أُحُدٍ، وهوَ خَالِدٌ في النَّار أبدًا لا يَمُوتُ فِيْها ولا يَحْيا أيْ حَياةً فيها راحة، لَيْسَ لَهُم فِيها طَعامٌ إلا مِن ضَرِيْعٍ، وشَرابُهُم من الماءِ الحارّ الْمُتنَاهِي الحرارةِ.

وأمَّا كَونُ الجَنَّةِ فَوقَ السَّماءِ السَّابعةِ فذَلِكَ ثابِتٌ فِيْمَا صَحَّ مِنَ الحديث(٢) وهو قوله ﷺ «**وفوقَه**» يعنِي الفردوسَ «**عرشُ الرحمٰن**»، وأمّا كَونُ جهَنَّمَ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابعةِ فقَد قالَ أبو عبدِ الله الحاكمُ في المسْتَدْرَكِ(٣) إنَّ ذلكَ جاءَت فيهِ رِواياتٌ صَحيحةٌ.

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٩/٢٣٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب درجات المجاهدين.
(٣) المستدرك (٤/٥٩٦).

الشَّفَاعَةُ

والشَّفَاعَةُ حَقٌّ وهي سُؤالُ الخَيرِ منَ الغَيْرِ لِلْغَيرِ فيَشْفَعُ النَّبيُّونَ والعُلَماءُ العَامِلُونَ والشُّهدَاءُ والملائكةُ، ويشفَعُ نبيُّنا لأهْلِ الكبَائرِ مِن أمَّتِه، فَقد جَاءَ في الحَديثِ الصَّحيحِ «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكبَائرِ مِن أمَّتي**» رَواهُ ابنُ حِبّانَ(١)، أي غَير أهْلِ الكَبائرِ لَيْسُوا بحَاجَةٍ للشَّفَاعةِ، وتَكُونُ لبَعْضِهم قبلَ دخولِهِمُ النَّارَ ولِبَعْضٍ بَعدَ دخُولِهِمْ قَبْلَ أن تَمضِيَ المدَّةُ التي يَسْتَحِقُّونَ بِمَعَاصِيْهِم، ولا تكونُ للكُفَّارِ قَالَ الله تَعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾(٢)، وأوَّلُ شَافِعٍ يَشْفَعُ هُوَ النبيُّ ﷺ.

الرُّوْحُ

يَجِبُ الإيمانُ بالرُّوحِ وهي جِسْمٌ لَطِيفٌ لا يَعلَمُ حَقِيقَتَهُ إلا الله، وقَد أَجْرَى الله العَادَةَ أن تَسْتَمرَّ الحيَاةُ في أجْسَامِ الملائِكَةِ والإنسِ والجِنّ والبَهائم مَا دامَت تِلكَ الأجْسَامُ اللطيفَةُ مُجتَمِعةً معَها، وتُفَارِقُها إذَا فَارَقَتْها تلكَ الأجْسَامُ، وهيَ حادِثَةٌ لَيسَت قَديمَةً، فَمن قالَ إنَّها قَدِيمةٌ ليسَت مخلُوقَةً فقَد كَفَرَ، وكذلكَ مَن قالَ البَهائمُ لا أَرْواحَ لهَا كمَا قالَ ذلكَ مُحمّدُ مُتَوَلّي الشَّعْراوِيُّ في كتابَيْه التفسير والفتاوى(٣). وذَلِكَ تَكْذِيبُ

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٨/ ١٣٢).
(٢) سورة الأنبياء/ الآية (٢٨).
(٣) انظر كتابه الفتاوى (١/ ٢١٨).

للقُرْءَانِ وإنكارٌ للعِيانِ قَالَ تَعالى ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[١].
وقال رسولُ الله ﷺ «**لتُؤدَّنَّ الحُقوقُ إلى أهْلِها يَومَ القِيامةِ حَتّى يُقادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ**» رَواهُ مُسْلِمٌ[٢].

---

(١) سورة التكوير/الآية (٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم.

بَيانُ
أنَّ رَحْمَةَ الله شَامِلَةٌ في الدُّنيا للمؤمنين والكَافرينَ خاصَّةٌ بالْمُؤمنِينَ في الآخِرَةِ

واللهُ تَعالى يَرْحَمُ الْمُؤْمنينَ والكَافِرينَ في الدُّنْيا وَسِعَتْ رَحمَتُه كُلًّا، أَمَّا في الآخرةِ فرَحمَتُه خَاصَّةٌ للمؤمنينَ، قالَ الله تعالى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[١].

أي وسعتْ في الدنيا كل مسلم وكافر، ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أي في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي أخصُّها لِمَنِ اتَّقى الشركَ وسائرَ أنواع الكفر.

وقَالَ تَعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾[٢] أي أنَّ الله حرَّمَ على الكَافِرينَ الرّزقَ النَّافِعَ والماءَ الْمُرْوِيَ في الآخِرَةِ وذَلكَ لأنَّهُم أضاعُوا أعْظَمَ حُقُوقِ الله الذي لا بدِيلَ لهُ وهوَ الإيمانُ بالله ورسولِه.

ثُمَّ إنَّ الله جَعَلَ الدُّخُولَ في الإسْلامِ الذي هوَ أفضَلُ نِعَمِ الله سَهْلًا وذَلِكَ بالنُّطْقِ بالشَّهادَتينِ بَعْدَ مَعْرفةِ الله ورسُولِه، وجعَلَ الكفرَ سَهْلًا فكلِمةٌ واحدةٌ تَدُلُّ على الاسْتِخْفافِ بالله أو شَريعَتهِ تُخْرجُ قَائِلَها منَ الإيمانِ وتوقِعُهُ في الكفرِ الذي هو

---

(١) سورة الأعراف/الآية (١٥٦).
(٢) سورة الأعراف/الآية (٥٠).

أسْوأُ الأحوالِ حَتَّى يكونَ عنْدَ الله أحْقَرَ مِنَ الحَشَراتِ والوُحوشِ، سَواءٌ تكَلَّمَ بِها جَادًّا أو مَازِحًا أو غَضْبانَ، وقَد شُرِحَ ذَلكَ في كتُبِ الفِقْهِ في المذَاهبِ الْمُعْتَبرَةِ وحَكَمُوا أنّ المتلَفّظَ بها يكفرُ.

قالَ الله تَعالى ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾(١).

---

(١) سورة الأنفال/الآية (٥٥).

البِدْعَةُ

البِدْعَةُ لُغَةً مَا أُحْدِثَ علَى غَيرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وشَرْعًا الْمُحْدَثُ الذي لَم يَنُصَّ علَيهِ القُرءَانُ ولا الحدِيثُ.

وتَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين كَما يُفهَمُ ذلكَ مِن حَديثِ عائِشَةَ(١) رضِيَ الله عنْها قالَت قالَ رسولُ الله ﷺ «**مَن أَحْدَثَ في أمْرِنا هَذا مَا لَيسَ منْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، أي مَردُودٌ.

القِسْمُ الأَوَّلُ البِدْعَة الحَسَنَة وتُسَمَّى السُّنَّةَ الحسَنَةَ، وهي الْمُحدَثُ الذي يُوافِقُ القُرءانَ والسُّنَّةَ.

القِسْمُ الثَّانِي البِدْعَة السَّيِّئَة وتُسَمَّى السُّنَّةَ السَّيِّئةَ، وهي الْمُحْدَثُ الذي يُخَالِفُ القُرءانَ والحَدِيثَ(٢).

وهَذا التَّقْسِيمُ مَفْهُومٌ أيضًا مِن حَدِيثِ جَرِيرِ بنِ عَبد الله البَجَلِيّ رَضيَ الله عنهُ قالَ قالَ رسولُ الله ﷺ «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسَنَةً فَلَهُ أجرُها وأجرُ مَن عَمِلَ بها بعدَهُ مِن غير أن يَنْقُصَ من أجُورِهم شَىءٌ ومَن سَنَّ في الإسْلام سُنَّةً سَيِّئةً كانَ عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِه مِن غَيرِ أن يَنْقُصَ مِن أَوزَارِهم شَىءٌ**» رَواهُ مسلمٌ(٣).

فَمِنَ القِسْم الأَوَّلِ الاحْتِفَالُ بمَولِدِ النَّبي ﷺ في شهرِ ربيع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور.
(٢) انظر تقسيم البدعة في مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٦٨ - ٤٦٩)، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ٢٢)، رد المحتار على الدر المختار الحنفي (١/ ٣٧٦).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة.

الأولِ، وأوَّلُ مَنْ أحدَثَهُ الملِكُ المُظَفَّرُ مَلِكُ إرْبِلَ في القَرْنِ السَّابِع الهِجْرِيّ، وتَنْقيطُ التَّابعِيّ الجليلِ يَحْيَى بنِ يَعْمرَ الْمُصْحَفَ وكانَ مِن أهْلِ العِلْمِ والتَّقْوى، وأقَرَّ ذَلِكَ العُلَماءُ مِن مُحَدّثينَ وغَيْرِهم واسْتَحْسَنُوهُ ولَم يكُن مُنَقَّطًا عِنْدَما أَمْلَى الرَّسُولُ علَى كتَبَةِ الوَحْي، وكذَلِكَ عُثمانُ بنُ عَفّانَ لـمّا كتَبَ المصَاحِفَ الخَمْسَةَ أو السّتَّةَ لم تكُن مُنَقَّطَةً، ومُنْذُ ذَلك التَّنقِيطِ لم يَزَل المسلِمونَ على ذَلكَ إلى اليَوم، فَهلْ يُقالُ في هَذا إنَّه بِدْعَةُ ضَلالةٍ لأَنَّ الرَّسُولَ لَم يَفْعَلهُ، فإنْ كانَ الأمْرُ كذَلِكَ فليَتْركُوا هذِهِ المصَاحِفَ المُنَقَّطَةَ أو لِيَكْشِطُوا هَذَا التَّنقِيطَ مِنَ المَصَاحِفِ حتَّى تعودَ مجرَّدَةً كما في أيّامِ عُثمانَ. قالَ أبو بكر ابنُ أبِي دَاودَ صَاحِبِ السُّنَنِ في كِتَابه الـمَصَاحِف[1] «أَوّلُ مَن نَقَطَ الـمَصَاحِفَ يَحيى بنُ يَعْمرَ» اهـ وهوَ مِنْ عُلَماءِ التَّابِعينَ رَوَى عَن عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ وغَيرِه.

ومِنَ القِسْم الثَّانِي الْمُحْدَثاتُ في الاعْتِقادِ كبِدْعَةِ الْمُعتَزِلَةِ والخوارِجِ وغَيْرِهم مِنَ الذينَ خَرجُوا عَمَّا كانَ علَيه الصَّحابةُ رِضْوانُ الله علَيْهم في المُعتَقَد، وكِتَابة ص أو صلعم[2] بعدَ اسْمِ النَّبِيّ بدَلَ ﷺ وقَد نَصَّ الْمُحدّثونَ في كتُبِ مُصْطَلَح الحَديثِ علَى أنَّ كِتَابةَ الصَّادِ مُجَرَّدةً مَكروهٌ[3]، ومعَ هذَا لَمْ يُحَرّمُوها، فَمِن أينَ لِهؤلاءِ الْمُتَنَطّعينَ الْمُشَوّشِينَ أن يقولوا عن

(١) كتاب المصاحف (ص/١٥٨).
(٢) وكتابةُ (صَلعَم) بعدَ اسم النّبي ﷺ أقبح من كتابة (ص).
(٣) تدريب الراوي (ص/٢٨٤).

عَمَلِ المولدِ بدعَةٌ محرّمةٌ، وعَن الصَّلاةِ على النَّبيّ جَهْرًا عقِبَ الأذانِ إنَّها بدعةٌ محرّمةٌ بدَعْوَى أنَّ الرسولَ ما فعلَهُ والصَّحابةَ لم يفعَلُوه. ومنه تحريفُ اسمِ الله إلى ءاه ونحوِه كما يَفعَلُ ذلكَ كثيرٌ من المنتسبينَ إلى الطُّرُقِ فإنَّ هذا من البِدَعِ المُحرَّمَةِ.

قَالَ الإمامُ الشَّافِعيُّ رضيَ الله عنهُ «الْمُحدَثاتُ مِنَ الأمُورِ ضَربانِ، أحَدُهُما مَا أُحدِثَ ممّا يُخَالِفُ كِتابًا أَو سُنَّةً أو إجْماعًا أَو أثَرًا فَهذِه البِدْعَةُ الضّلالَةُ، والثّانِيةُ مَا أُحْدِثَ مِنَ الخَيرِ ولا يُخَالِفُ كِتَابًا أو سُنَّةً أو إجْماعًا وهَذه مُحْدَثَةٌ غَيرُ مَذْمُومَةٍ»، رَواهُ البَيْهقيُّ بالإسْنادِ الصحيح في كتابِه «مَنَاقِب الشَّافِعيّ»[1].

(١) مناقب الشافعي (١/ ٤٦٩).

إثْباتُ أنَّ التَّوسُّلَ بالأنْبِياءِ والأولياءِ جائزٌ وأنّهُ لَيْسَ شِرْكًا كما تقولُ الوهابيةُ

اعلم أنه لا دليلَ حقيقيٌّ يدل على عدم جواز التوسل بالأنبياء والأولياء في حال الغيبة أو بعد وفاتهم بدعوى أن ذلك عبادة لغير الله لأنه ليس عبادةً لغير الله مجردُ النداء لحيّ أو ميّتٍ ولا مجردُ التعظيم ولا مجردُ الاستغاثة بغير الله ولا مجردُ قصد قبر وليّ للتبرك، ولا مجردُ طلب ما لم تجر به العادة بين الناس، ولا مجردُ صيغة الاستعانة بغير الله تعالى أي ليس ذلك شركًا لأنه لا ينطبق عليه تعريف العبادة عند اللغويين لأن العبادة عندهم الطاعة مع الخضوع.

قال الأزهريُّ الذي هو أحدُ كبارِ اللُّغَويين في كتابِ تَهْذِيبِ اللغة[١] نقلًا عن الزجاج الذي هو من أشهرِهِمْ «العبادةُ في لغةِ العربِ الطاعةُ معَ الخضوعِ» اهـ وقالَ مِثْلَهُ الفرّاءُ كما في لسانِ العربِ[٢] لابنِ منظورٍ وقالَ بعضُهُم[٣] أقصى غايةِ الخشوعِ والخضوعِ اهـ وقالَ بعضٌ نهايةُ التذللِ كما يُفهمُ ذلكَ من كلامِ شارح القاموسِ[٤] مرتضى الزبيديّ خاتمة اللغويينَ، وهذا الذي يستقيمُ لغةً وعُرْفًا.

---

(١) تهذيب اللغة (٢/١٣٨).
(٢) لسان العرب (٣/٢٧٣)، معاني القرءان وإعرابه (١/٤٨).
(٣) هذا قول السبكي في فتاويه (١/١٠) وعبارته أقصى غاية الخضوع والتذلل.
(٤) تاج العروس (٢/٤١٠).

وليس مُجَرَّدُ التذللِ عبادةً لغيرِ اللهِ وإلا لَكَفرَ كلُّ مَن يتذللُ للملوكِ والعظماءِ. وقد ثبتَ أنَّ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ لما قدمَ منَ الشامِ سجدَ لرسولِ اللهِ فقالَ الرسولُ «**ما هذا**» فقالَ يا رسولَ اللهِ إنّي رأيتُ أهلَ الشام يسجدونَ لبطارقتهم(١) وأساقِفَتِهِمْ(٢) وأنتَ أولى بذلكَ، فقالَ «**لا تفعلْ، لو كنتُ ءامرُ أحدًا أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها**»، رواهُ ابنُ حبّانَ وابنُ ماجَه وغيرُهما(٣). ولَمْ يَقُلْ له رسولُ اللهِ ﷺ كفرتَ، ولا قال لهُ أشركتَ معَ أنَّ سجودهُ للنبيّ مظهرٌ كبيرٌ مِن مظاهرِ التَّذَلُّلِ(٤).

فهؤلاءِ الذين يكفّرونَ الشخصَ لأنهُ قصدَ قبرَ الرسولِ أو غيرِهِ منَ الأنبياءِ والأولياءِ للتبرّكِ فهُم جهلوا معنى العبادةِ، وخالفوا ما عليهِ المسلمونَ، لأنَّ المسلمينَ سَلَفًا وخَلَفًا لم يزالوا يزورونَ قبرَ النبيّ للتبركِ وليسَ معنى الزيارةِ للتبركِ أنَّ الرسولَ يخلقُ لَهُمُ البركةَ بلِ المعنى أنَّهُم يرجونَ أن يخلقَ اللهُ لهم البركةَ بزيارتهم لِقَبْرِهِ.

والدليلُ على ذلكَ ما رواهُ البيهقيُّ(٥) بإسنادٍ صحيحٍ عَن مالكِ الدارِ(٦) وكانَ خازنَ عمرَ قالَ أصابَ الناسَ

---

(١) البِطْريقُ بالكَسْر منَ الرُّوم كالقَائدِ منَ العَربِ.

(٢) علماءُ النصارى يقال لهم أسَاقِفةٌ.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه (٧/ ٢٩١ - ٢٩٢)، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة. وانظر الإحسان (٦/ ١٨٦ - ١٨٧).

(٤) السجود لإنسان ولو لنبي حرام في الشريعة المحمدية ولو كان بقصد التحية.

(٥) دلائل النبوة (٧/ ٤٧)، وصحح إسناده ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٩٢)، والحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٤٩٥).

(٦) قول بعض الوهابية إن مالك الدار مجهول يرده أن عمر لا يتخذ خازنًا إلا=

قَحْطٌ(١) في زمانِ عمرَ(٢) فجاءَ رجلٌ(٣) إلى قبرِ النبيّ ﷺ فقالَ يا رسولَ اللهِ اسْتَسْقِ لأُمَّتِكَ فإنهم قد هلكوا(٤) فأُتيَ الرجلُ في المنام(٥) فقيلَ لهُ أقْرِئْ عمرَ السلامَ(٦) وأخبرهُ أنهم يُسقَونَ(٧)، وقُل لَهُ عليكَ الكَيْسَ الكَيْسَ(٨). فأتى الرجلُ عمرَ فأخبرَهُ، فبكَى عمرُ وقالَ يا ربّ ما ءَالُوا إلا ما عَجَزْتُ(٩). وقد جاءَ في تفسير هذا الرجلِ(١٠) أنهُ بلالُ بنُ الحارثِ المزنِيُّ الصحابِيُّ.

= خازنًا ثقة وقد وثقه الحافظ الخليلي في كتابه الإرشاد (١/٣١٣)، ومحاولتهم لتضعيف هذا الحديث بعدما صححه الحافظ ابن حجر لغوٌ لا يُلتفت إليه. ويقال لهذا المدعي لا كلام لك بعد تصحيح أهل الحفظ أنت ليس لك في اصطلاح أهل الحديث حق في التصحيح والتضعيف فإن التصحيح والتضعيف خاص بالحافظ وأنت تعرف نفسك أنك بعيد من هذه المرتبة بعد الأرض من السماء فما حصل من هذا الصحابيّ استغاثة وتوسل. وبهذا الأثر يبطل أيضًا قول الوهابية إن الاستغاثة بالرسول بعد وفاته شرك. وقد قال الحافظ الفقيه اللغوي تقي الدين السبكي «إن التوسل والاستغاثة والتوجه والتَّجوُّهَ بمعنى واحد» ذكر ذلك في كتابه شفاء السَّقام (ص/١٧٥) الذي ألفه في الرد على ابن تيمية في إنكاره سنية السفر لزيارة قبر الرسول وتحريمه قصر الصلاة في ذلك السفر.

(١) أي وَقَعت مَجاعَةٌ، تِسْعَةَ أَشْهُرٍ انقَطعَ المطَرُ عَنْهُم.

(٢) أي في خِلافَتِه.

(٣) أي مِنَ الصّحابةِ.

(٤) معناهُ اطلُب منَ الله المَطَرَ لأُمّتِكَ فَإنَّهُم قَدْ هَلَكُوا.

(٥) أي أُرِيَ في المنام أن رسول الله يكلمه.

(٦) أي سلّم لي عليهِ.

(٧) أي سَيأْتيْهِم المَطَرُ، ثم سَقَاهُم الله تعالى حتَّى سُمِّيَ ذلكَ العامُ عامَ الفَتْقِ مِنْ شِدَّةِ ما ظَهَرَ منَ الأعْشَابِ وسَمِنَتِ المواشِي حتّى تَفتَّقَتْ بالشَّحْم.

(٨) أي عَليكَ بالتفكر فيما تركت فعله مما ينبغي لتزول هذه النازلة عَن المسلمين.

(٩) أي لا أُقَصِّرُ إلا ما عَجَزْتُ، أي سَأفْعَلُ مَا في وُسْعِي لخدْمَةِ الأُمَّةِ.

(١٠) رواه سيف في الفتوح كما في فتح الباري (٢/٤٩٦).

فهذا الصحابِيُّ قد قصدَ قبرَ الرسولِ للتبركِ فلم يُنكِر عليهِ عمرُ ولا غيرهُ فبطلَ دعوَى ابنِ تيميةَ أن هذهِ الزيارةَ شِرْكيةٌ.

وقد قالَ الحافظُ وَلِيُّ الدينِ العراقيُّ(١) في حديثِ أبِي هريرةَ(٢) أنَّ موسى قالَ «ربّ أدْنِنِي منَ الأرضِ المقدّسةِ رميةً بحجرٍ»، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال(٣) «**واللهِ لو أنّي عندهُ لأريتُكم قَبْرَهُ إلى جنبِ الطريقِ عندَ الكثيبِ الأحمرِ**» فيهِ استحبابُ معرفةِ قبورِ الصالحينَ لزيارتها والقيامِ بحقّها اهـ

وقال الحافظ الضياء حدثني سالم التل قال «ما رأيت استجابة الدعاء أسرع منها عند هذا القبر، وحدثني الشيخ عبد الله بن يونس المعروفُ بالأرمنيّ أنه زار هذا القبر وأنه نام فرأى في منامه قبّة عنده وفيها شخص أسمر فسلّم عليه وقال له أنت موسى كليم الله أو قال نبيّ الله، فقال نعم، فقلت قل لي شيئًا، فأومأ إليّ بأربع أصابع ووصفَ طُولَهُنَّ، فانتبهت ولم أدر ما قال، فأخبرت الشيخ ذَيَّالًا بذلك فقال يولد لك أربعة أولاد، فقلتُ أنا قد تزوجت امرأة لم أقربها، فقال تكون غير هذه، فتزوجتُ أخرى فولدت لِي أربعةَ أولاد اهـ

وأخرج أحمد(٤) في المسند بإسناد حسن كما قال الحافظ ابن حجر(٥) أن الحارثَ بنَ حسانٍ البكريَّ قال لرَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) طرح التثريب (٣/ ٣٠٣).
(٢) و(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣١٥).
(٤) مسند أحمد (٣/ ٤٨٢).
(٥) فتح الباري (٨/ ٥٧٨).

«أعوذ باللهِ ورسولِهِ أن أكونَ كوافِدِ عادٍ» الحديث بطولِهِ دليلٌ يُبطل قول الوهابية الاستعاذة بغير الله شرك.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «**إن لله ملائكةً في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصابَ أحدَكم عَرْجَةٌ بأرضٍ فلاةٍ فليُنادِ أعينوا عبادَ اللهِ**» رواه الطبرانِيُّ، وقال الحافظ الهيثميُّ[١] «رجاله ثقات».

وقال رسول الله ﷺ «**حياتِي خيرٌ لكم تُحدِثون ويُحْدَثُ لَكُمْ وَوَفَاتِي خيرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عليَّ أعمالُكُمْ فما رأيتُ من خيرٍ حَمِدْتُ الله عليه وما رأيت من شر استغفرت لكم**» رواه البزار[٢] ورجاله رجال الصحيح[٣].

وأخرج الطبرانِيُّ في معجميه الكبير[٤] والصغير[٥] عن عثمان ابن حنيف أن رجلًا كان يختلف[٦] إلى عثمان بن عفان، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فَلَقِيَ عثمانَ بنَ حنيف فشكا إليه ذلك فقال ائتِ الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهمَّ إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إنّي أتوجه بك إلى ربّي في حاجتِي لتُقضَى لِي ثم رُحْ

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٢) للطبراني وقال «رواه الطبراني ورجاله ثقات».
(٢) مسند البزار (٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩).
(٣) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٤).
(٤) المعجم الكبير (٧/ ٤١١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٩) «وقد قال الطبراني عقبه والحديث صحيح بعد ذكر طرقه التي روي بها».
(٥) المعجم الصغير (ص/ ٢٠١ - ٢٠٢).
(٦) أي يتَردَّدُ.

حتى أروحَ معكَ، فانطلق الرجُلُ ففعلَ ما قال، ثم أتَى بابَ عثمان فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه على طِنْفِسته[١] فقال ما حاجتك، فذكر له حاجته فقضى له حاجته وقال ما ذكرتُ حاجتَكَ حتى كانتْ هذه الساعةُ، ثم خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته فيّ، فقال عثمانُ بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وقد أتاه ضريرٌ فشكا إليه ذهابَ بصرِهِ فقال «**إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك**»، قال يا رسول الله إنه شق عليَّ ذهاب بَصَرِي وإنه ليس لِي قائدٌ فقال له «**ائتِ الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ثم قل هؤلاء الكلمات**» ففعل الرجل ما قال فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا المجلس حتى دخل علينا الرجل وقد أبصر كأنه لم يكن به ضُرٌّ قَطُّ اهـ

قال الطبرانِيُّ في كل من معجميه «والحديث صحيح» اهـ والطبرانِيُّ من عادته أنه لا يصحح حديثًا مع اتساع كتابه المعجم الكبير ما قال عن حديث أورده ولو كان صحيحًا الحديث صحيح إلا عن هذا الحديث. وكذلك أخرجه في الصغير وصَحَّحَهُ.

ففيه دليل أن الأعمى توسل بالنبيّ في غير حضرته بدليل قول عثمان بن حنيف «حتى دخل علينا الرجل»، وفيه أن التوسل بالنبيّ جائز في حالة حياته وبعد مَمَاتِهِ فبطل قول ابن تيمية «لا

---

(١) أي سَجّادته.

يجوز التوسل إلا بالحي الحاضر»، وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مِائةَ شرطٍ.

وأما تمسكُ بعض الوهابية لِدعوى ابن تيمية هذه برواية البيهقيّ[١] التي فيها «اللهم شَفِّعْهُ فِيَّ وشفعني في نفسي»، فلا يفيد أنه لا يُتَبَرَّكُ بذاتِ النبيّ بل التبرك بذات النبيّ إجماع لم يخالفه إلا ابن تيمية، والرسول هو الذي قال فيه القائل [الطويل]

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثمال اليتامى[٢] عصمة للأراملِ

أورده البخاريُّ[٣].

وأما توسلُ عمر بالعباس بعد موت النبيّ ﷺ فليس لأن الرسول قد مات، بل كان لأجل رعايةِ حقّ قرابته من النبي ﷺ، بدليل قول العباس حين قدمه عمر «اللهم إن القوم توجهوا بِي إليك لِمَكانِي[٤] من نبيك»، فتبينَ بُطلانُ رَأْيِ ابنِ تيميةَ ومَنْ تبعه من مُنْكِرِي التوسلِ. رَوَى هذا الأثرَ الزبيرُ بنُ بكارٍ كما قال الحافظُ ابنُ حجرٍ[٥].

ويُستأنس له أيضًا بما رواه الحاكمُ في المستدرك[٦] أن عمر رضي الله عنه خطب الناس فقال «أيها الناس إنَّ رسول الله

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٦٦).
(٢) أي غياثهم.
(٣) صحيح البخاري: كتاب الاستسقاء: باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.
(٤) أي لمكانتي عنده.
(٥) فتح الباري (٢/ ٤٩٧).
(٦) المستدرك (٣/ ٣٣٤).

ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه ويفخمه ويَبَرُّ قَسَمَهُ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس واتَّخِذُوهُ وسيلة إلى الله في ما نزل بكم»، فهذا يوضح سبب توسل عمر بالعباس.

فلا التفات بعد هذا إلى دعوى بعض هؤلاء المشوشين أنَّ الحديثَ المذكورَ في إسناده أبو جعفر[١] وهو رجل مجهول، وليس كما زعموا بل أبو جعفر هذا هو أبو جعفر الخَطْمِيُّ ثقة، وكذلك دعوى بعضهم وهو ناصر الدين الألبانِيُّ[٢] أنَّ مُرادَ الطَّبرَانيّ بقَولِه «والحديث صحيح» القدر الأصليّ وهو ما فعله الرجل الأعمى في حياة رسول الله فقط، وليس مراده ما فعله الرجل أيام عثمان بن عفان بعد وفاة الرسول وهذا مردودٌ، لأن علماء المصطلح قالوا «الحديث يطلق على المرفوع إلى النبيّ والموقوف على الصحابة»، أي أن كلام الرسول يسمى حديثًا وقولَ الصحابِيّ يُسَمَّى حديثًا، وليس لفظ الحديث مقصورًا على كلام النبي فقط في اصطلاحهم، وهذا الْمُمَوّهُ كلامُهُ لا يوافق

---

(١) وثقه ابن معين والنسائي وابن حبان وابن نمير والعجلي والطبراني كما في التهذيب (٨/ ١٣٤). وأما كون الراوي هو أبو جعفر الخطمي فقد صرح به من خرج الحديث ومنهم الترمذي في سننه والحاكم في المستدرك وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص/٥٨١) وغيرهم قالوا «عن أبي جعفر المدني وهو الخَطمي» إلا الترمذي فلم يقل المدني، وكذا نسبه إلى الخطمي الإمام أحمد في مسنده (١٣٨/٤) وسماه الطبراني في معجميه الكبير والصغير بالخطمي المدني وهذا يكفي للجزم بأن أبا جعفر هو الخطمي وليس غيره.

(٢) انظر كتابه التوسل (ص/٩٦).

المقررَ في علم المصطلح فلينظر من شاء في كتاب تدريب الراوي[١] والإفصاح وغيرِهما من كتب المصطلح، فإن الألبانِيَّ لم يجره إلى هذه الدعوى إلا شدة تعصبه لهواه وعدم مبالاته بمخالفة العلماء كسلفه ابن تيمية.

أما حديثُ ابنِ عباسٍ الذِي رواهُ الترمذيُّ[٢] أنَّ النبيَّ ﷺ قال له «**إذا سألتَ فاسألِ اللهَ وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللهِ**» فليس فيه دليلٌ أيضًا على منع التوسل بالأنبياء والأولياء لأنَّ الحديثَ معناه أن الأَوْلَى بأن يُسْأَلَ ويُستعانَ به الله تعالى، وليس معناه لا تسألْ غيرَ اللهِ ولا تَستعِنْ بغيرِ اللهِ. نظيرُ ذلك قوله ﷺ[٣] «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيّ**» فكما لا يفهم من هذا الحديث عدم جواز صحبة غير المؤمن وإطعام غير التقي وإنما يفهم منه أن الأولى في الصحبة المؤمن وأن الأولى بالإطعام هو التقي، كذلك حديث ابن عباس لا يفهم منه إلا الأولوية وأما التحريم الذي يدعونه فليس في هذا الحديث.

ولا فرق بين التوسل والاستغاثة، فالتوسلُ يُسَمَّى استغاثةً كما جاء في حديث البخاري[٤] أن النبي ﷺ قال «**إن الشمس تَدْنُو يومَ القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم موسى ثم بمحمد**» صلى الله عليهم وسلم الحديثَ في رواية عبد الله بن عمر لِحديثِ الشفاعة يوم القيامة، وفي رواية

(١) تدريب الراوي (ص/١١٦).
(٢) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة باب قول النبيّ يا حنظلة ساعة وساعة.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب من يؤمر أن يجالس.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب من سأل الناس.

أنس[١] رُوِيَ بلفظِ الاستشفاعِ وكلتا الروايتين في الصحيح فدل ذلك على أن الاستشفاع والاستغاثة بمعنى واحد فَسَمَّى الرسولُ ﷺ هذا الطلبَ من ءادم أن يشفع لهم إلى ربهم استغاثة.

ثم الرسول سَمَّى المطر مُغِيثًا فقد روى أبو داود وغيره[٢] بالإسناد الصحيح أنَّ الرسولَ قال «**اللهم اسقنا غيثًا مُغيثًا مَريعًا نافعًا غيرَ ضارّ عاجلًا غيرَ ءاجلٍ**»، فالرسولُ سَمَّى المطرَ مُغِيثًا لأنه ينقذ من الشدة بإذن الله، كذلك النبيّ والولِيّ ينقذان من الشدة بإذن الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرءان باب قول الله وعلم ءادم الأسماء كلها.

(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء، وابن ماجه في سننه كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في الدعاء في الاستسقاء، قال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٣٢) «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

التبركُ بآثار النبيّ ﷺ

اعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتبركون بآثار النبيّ ﷺ في حياتِهِ وبعد مَمَاتِهِ ولا زال المسلمون بعده إلى يومنا هذا على ذلك، وجوازُ هذا الأمر يعرف من فعل النبي ﷺ وذلك أنه ﷺ قسم شعره حين حلق في حجة الوداع وأظفاره.

أما اقتسام الشعر فأخرجه البخاريُّ[١] ومسلم[٢] من حديث أنس، ففي لفظ مسلم أنه قال لما رمى ﷺ الجمرة ونَحَرَ نسكه وحلق ناول الحالق شقه الأيمن فحلق ثم دعا أبا طلحةَ الأنصاريَّ فأعطاه ثم ناوله الشق الأيسر فقال «**احلق**»، فحلق فأعطاه أبا طلحة فقال «**اقسمه بين الناس**». وفي رواية لمسلم أيضًا[٣] «فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس» ثم قال بالأيسر فصنع مثل ذلك ثم قال «**ههنا أبو طلحة**» فدفعه إلى أبِي طلحة. وفي رواية أخرى لمسلم[٤] أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام قال للحلاق «**ها**»، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن فقسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر فحلقه فأعطاه أم سُليم، فمعنى الحديث أنه وزع بنفسه بعضًا بين الناس الذين يلونه وأعطى بعضًا لأبِي طلحةَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان.

(٢) و(٣) و(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق.

ليوزعه في سائرهم وأعطى بعضًا أم سُليم ففيه التبرك بآثار الرسول، فقد قسم ﷺ شعره ليتبركوا به وليستشفعوا إلى الله بما هو منه ويتقربوا بذلك إليه، قَسَمَ بينهم ليكون بركة باقية بينهم وتذكرة لهم. ثم تبع الصحابة في خطتهم في التبرك بآثاره ﷺ من أسعده الله وتوارد ذلك الخلف عن السلف.

وأما اقتسام الأظفار فأخرج الإمامُ أحمدُ في مسنده(١) أن النبيَّ ﷺ قلم أظفاره وقسمها بين الناس، ومعلوم أن ذلك لم يكن ليأكلها الناس بل ليتبركوا بها.

أما جبته ﷺ فقد أخرج مسلم في الصحيح(٢) عن مولى أسماء بنت أبِي بكر قال «أخرجتْ إلينا جُبَّةَ طَيالِسَةٍ كِسْرَوَانِيةً لَهَا لِبْنَةُ ديباجٍ وفرجيها مكفوفين(٣)،وقالت هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة، فلما قبضت قبضتها وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى نَستشفِي بِها»، وفي رواية(٤) «نغسلها للمريض منا».

وعن حنظلة بن حِذْيَم قال «وفدت مع جَدّي حِذْيَمٍ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لِي بنينَ ذوي لِحى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٢).

(٢) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء.

(٣) قال النووي في شرح مسلم (١٤/ ٤٤) «كذا وقع في جميع النسخ «وفرجيها مكفوفين» وهما منصوبان بفعل محذوف أي ورأيت فرجيها مكفوفين»، ووقع عند أحمد في مسنده (٦/ ٣٤٨) لفظ «وفرجاها مكفوفان».

(٤) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣٤٧).

وغيرهم وهذا أصغرهم فأدنانِي رسول الله ﷺ ومسح رأسي، وقال «بارك الله فيك»، قال الذيَّال «فلَقد رأيتُ حَنظلَةَ يُؤتَى بالرَّجلِ الوَارمِ وجهُهُ أو الشاةِ الوارمِ ضرعها فيقول بسم الله على موضع كف رسول الله ﷺ فيمسحه فيذهب الورم»، رواه الطبرانِيُّ في الأوسط والكبير بنحوه(١)، وأحمد(٢) في حديث طويل ورجال أحمد ثقاتٌ(٣).

وعن ثابتٍ قال «كنت إذا أتيت أنَسًا يُخْبَرُ بِمَكَانِي فأدخل عليه فآخذ بيديه فأقبلهما وأقول بأبِي هاتان اليدان اللَّتَان مَسَّتَا رسولَ اللهِ ﷺ وأقبل عينيه وأقول بأبِي هاتان العينان اللَّتان رَأَتَا رسول الله ﷺ». رواه أبو يعلى(٤) في مسنده ورجالُهُ رجال الصحيح غير عبد الله بن أبِي بكرٍ الْمُقَدَّمِيّ وهو ثقة(٥).

وعن داودَ بنِ أبِي صالِحٍ قال «أقبلَ مروانُ(٦) يومًا فوجد رجلًا واضعًا وجهه على القبر فقال أتدري ما تصنع، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب(٧) فقال نعم جئتُ رسولَ اللهِ ﷺ ولم ءاتِ الحجرَ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «**لا تبكوا على الدين إذا**

---

(١) المعجم الأوسط (٣/ ٢٦٩) والمعجم الكبير (٤/ ١٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢١١) «رواه أحمد ورجاله ثقات».
(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٦٧ - ٦٨).
(٣) قاله الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤٠٨).
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٢١١).
(٥) قاله الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٥).
(٦) يعني مروان بنَ الحَكَم وكان حاكمًا على المدينة من قِبَلِ معاويةَ، ولم يرَ رسول الله كما قال البخَاري.
(٧) واسمُه خالدُ بنُ زيدٍ.

وليه أهله ولكنِ ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»[١] رواه أحمدُ[٢] والطبرانِيُّ في الكبيرِ والأوسطِ[٣].

وروى البيهقيُّ في دلائل النبوة[٤] والحاكم في مستدركه[٥] وغيرهما بالإسناد أن خالد بن الوليد فَقَدَ قلنسوةً له يومَ اليَرْمُوكِ فقال اطلبوها، فلم يجدوها، ثم طلبوها فوجدوها، فقال خالد «اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس جوانب شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا رزقت النصر». وهذه القصة صحيحة كما ذكر ذلك الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظميُّ في تعليقه على المطالب العالية[٦] فقال «قال البوصيري[٧] رواه أبو يعلى بسند صحيح[٨] وقال الهيثميُّ[٩] رواه الطبرانِيُّ وأبو يعلى بنحوِهِ ورجالهما رجال الصحيح» اهـ فلا التفات بعد هذا إلى دعوى مُنْكِرِي التوسلِ والتبركِ بآثاره الشريفة ﷺ.

(١) معناه أنتَ من غيرِ أهْلِهِ يا مروان، لستَ أهْلًا لِتوَلّي الأمر.
(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٤٥) «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وفيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره وضعفه النسائي وغيره».
(٣) المعجم الكبير (٤/ ١٨٩) والمعجم الأوسط (١/ ١٤٥).
(٤) دلائل النبوة (٦/ ٢٤٩).
(٥) المستدرك (٣/ ٢٩٩) وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي «منقطع».
(٦) انظر الكتاب (٤/ ٩٠).
(٧) إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ٢٧١).
(٨) مسند أبي يعلى (١٣/ ١٠٦).
(٩) مجمع الزوائد (٩/ ٣٤٩).

الاجتهادُ والتَّقليدُ

الاجتهادُ هو استخراج الأحكام التي لم يرد فيها نص صريح لا يحتمل إلا معنى واحدًا.

فالمجتهد من له أهليةُ ذلك بأن يكون حافظًا لآيات الأحكام وأحاديث الأحكام ومعرفة أسانيدها ومعرفة أحوال رجال الإسناد ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاص والمطلق والمقيد، ومع إتقان اللغة العربية بحيث إنه يَحْفَظُ مدلولات ألفاظ النصوص على حسب اللغة التي نزل بها القرءان، ومعرفة ما أجمع عليه المجتهدون وما اختلفوا فيه لأنه إذا لم يعلم ذلك لا يُؤْمَنُ عليه أن يخرق الإجماع أي إجماع من كان قبله.

ويُشترط فوق ذلك شرطٌ وهو ركن عظيم في الاجتهاد وهو فقه النفس أي قوة الفهم والإدراك.

وتُشترط العدالة وهي السلامة من الكبائر ومن المداومة على الصغائر بحيث تغلب على حسناته من حيث العددُ.

وأما المقلد فهو الذي لم يصل إلى هذه المرتبة.

والدليلُ على أن المسلمين على هاتين المرتبتين قوله ﷺ «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلِّغ لا فِقْهَ عنده**» رواه الترمذيُّ[١] وابنُ حبان[٢].

الشاهدُ في الحديث قولُهُ «**فَرُبَّ مبلِّغ لا فقه عنده**»، وفي

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع.
(٢) انظر الإحسان (١/ ١٤٣ - ١٤٤).

روايةٍ[١] «**ورُبَّ مبلَّغ أَوْعَى مِنْ سامعٍ**» فإنه يفهمنا أنَّ مِمَّنْ يسمعون الحديث من الرسول مَنْ حَظُّهُ أنْ يَرْوِيَ ما سمعه لغيره ويكون هو فهمُهُ أقلَّ مِنْ فَهْمِ من يُبَلِّغُه بحيث إنَّ من يبلِّغه هذا السامع يستطيع من قوة قريحته أن يستخرج منه أحكامًا ومسائل ويُسمى هذا الاستنباطَ، والذي سَمِعَ ليس عنده هذه القريحةُ القويةُ إنما يفهم المعنى الذي هو قريبٌ من اللَّفْظِ. مِنْ هنا يُعلم أن بعض الصحابة يكونُ أقلَّ فَهْمًا مِمَّنْ يسمعُ منهم حديثَ رسول الله. وفي لفظٍ لهذا الحديث «**فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منهُ**»، وهاتان الروايتان في الترمذيّ وابن حبان[٢].

وهذا المجتهد هو مورد قوله ﷺ «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**» رواه البخاريُّ[٣]، وإنما خص رسول الله في هذا الحديث الحاكم بالذكرِ لأنه أحوجُ إلى الاجتهاد من غيره فقد مضى مجتهدون في السلف مع كونهم حاكمين كالخلفاء الستة أبِي بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن ابن عليّ وعمر بن عبد العزيز وشُرَيحٍ القاضي.

وقد عدَّ علماء الحديث الذين ألفوا في كتب مصطلح الحديث الْمُفْتِينَ في الصحابة أقلَّ من عشرة[٤] قيل نحو ستة،

(١) انظر الإحسان (١/ ١٤٣ - ١٤٤).
(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وابن حبان في صحيحه انظر الإحسان (٢/ ٣٥).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.
(٤) تدريب الرّاوي للسّيوطي (ص/ ٣٨٠).

وقالَ بعض العلماء نحو مائتين منهم بلغ رتبة الاجتهاد، وهذا القول هو الأصحُّ. فإذا كان الأمر في الصحابة هكذا فمن أين يصح لكل مسلم يستطيع أن يقرأ القرءان ويطالع في بعض الكتب أن يقول أولئك رجالٌ ونحنُ رجالٌ فليس علينا أن نقلدهم، وقد ثبت أن أكثر السلف كانوا غير مجتهدين بل كانوا مقلدين للمجتهدين فيهم، ففي صحيح البخاري(١) أنَّ رجلًا كان أجيرًا لرجل فزنى بامرأته فسأل أبوه فقيل له إن على ابنك مائة شاة وأمة، ثم سأل أهل العلم فقالوا له إن على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فجاء إلى الرسول ﷺ مع زوج المرأة فقال يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفًا(٢) على هذا وزنى بامرأته فقال لِي ناس على ابنك الرجم ففديت ابني منه بمِائَةٍ من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم فقالوا إنما على ابنك جلد مائة وتغريب عام فقال رسول الله ﷺ «**لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فَرَدٌّ عليه، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام**»(٣).

فهذا الرجل مع كونه من الصحابة سأل أناسًا من الصحابة فأخطأوا الصواب ثم سأل علماء منهم ثم أفتاه الرسول بما يوافق ما قاله أولئك العلماء، فإذا كان الرسول أَفْهَمَنَا أنَّ بعضَ مَنْ كانوا يسمعون منه الحديث ليس لهم فقه أي مقدرة على استخراج الأحكام من حديثه وإنما حظهم أن يرووا عنه ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.
(٢) أي أجيرًا.
(٣) أي يُخرَج من بلَده إلى مسافةِ القَصْر لمدّة سنة.

سمعوه مع كونهم يفهمون اللغة العربية الفُصْحَى فما بال هؤلاء الغوغاء الذين يَتَجَرَّؤون على قول «أولئك رجال ونحن رجال»، أولئكَ رجالٌ يعنون المجتهدين كالأئمة الأربعة.

وفى هذا المعنى ما أخرجه أبو داود[١] من قصة الرجل الذي كانت برأسه شَجَّةٌ فأجنب في ليلة باردة فاستفتى من معه فقالوا له اغْتَسِلْ، فاغْتَسَلَ فماتَ فأُخبر رسولُ الله ﷺ فقال «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شِفَاءُ العِيّ السؤالُ**» أي شفاءُ الجهل السؤالُ أي سؤال أهل العلم، وقال عليه الصلاة والسلام «**إنما كان يكفيه أن يتيممَ ويعصبَ على جرحه خِرقةً ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**» الحديث رواه أبو داود وغيرُهُ فإنه لو كان الاجتهاد يصح من مطلق المسلمين لَمَا ذمَّ رسول الله هؤلاء الذين أفتوه وليسوا من أهل الفتوى.

ثم وظيفةُ المجتهدِ التي هي خاصةٌ له القياسُ، أي أن يَعْتَبِرَ ما لم يَرِدْ به نصٌّ بِما ورد فيه نصٌّ لِشَبَهٍ بينهما.

فالحذرَ الحذرَ من الذين يحثون أتباعهم على الاجتهاد مع كونهم وكون متبوعيهم بعيدين عن هذه الرتبة فهؤلاء يخربون ويدعون أتباعهم إلى التخريب في أمور الدين. وشبيهٌ بهؤلاء أناس تعودوا في مجالسهم أن يوزعوا على الحاضرين تفسير ءايةٍ أو حديث مع أنه لم يَسْبِقْ لهم تَلَقٍّ مُعْتَبَرٌ من أفواه العلماء فهؤلاء المدعون شذوا عن علماء الأصول لأن علماء الأصول قالوا «القياس وظيفة المجتهد» وخالفوا علماءَ الحديث أيضًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب في المجروح يتيمم.

خاتمةٌ

خلاصةُ ما مضى من الأبحاث أن من عرف الله ورسوله ونطق بالشهادة ولو مرة في العمر ورضي بذلك اعتقادًا فهو مسلم مؤمن.

ومن عرف ونطق ولم يعتقد فليس بمسلم ولا بمؤمن عند الله، وأما عندنا فهو مسلمٌ لِخَفاءِ باطِنِهِ علينا، وإن كان يتظاهر بالإسلام ويكره الإسلام باطنًا أو يتردد في قلبه هل الإسلام صحيح أم لا فهو منافق كافر وهو داخل في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١) فهو والكافر المعلن خالدان في النار خلودًا أبديًّا.

وقولُ البعضِ يصحُّ إيمان الكافر بلا نُطْقٍ معَ التمكنِ قولٌ باطلٌ لا يُلتفتُ إليه. وقال بعضهم «مَنْ نشأ بين أبوين مسلمين يكفيه المعرفة والاعتقاد لصحة إسلامه وإيمانه لو لم ينطق بالمرة».

ثم مَنْ صَحَّ له أصل الإيمان والإسلام ولو لم يَقُمْ بأداء الفرائض العملية كالصلوات الخمس وصيام رمضان ولم يجتنب المحرمات إلى أن مات وهو على هذه الحال قبل أن يتوب فقد نَجَا من الخلود الأبديّ في النار، ثم قسم منهم يسامحهم الله ويدخلهم الجنة بلا عذاب وقسم منهم يعذبهم ثم يخرجهم ويدخلهُمُ الجنةَ، والله أعلم بمن يسامِحُهُ ومَنْ لا يُسامِحُهُ.

(١) سورة النساء/الآية (١٤٥).

وأما من مات بعد أن تاب فأدى جميع ما افترض الله عليه واجتنب المحرمات فهو كأنه لم يذنب لقوله ﷺ «**التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنب له**» حديثٌ صحيحٌ رواه ابن ماجَهْ[١] عن ابن مسعود.

وفي صحيح البخاري[٢] أن رجلًا قال يا رسول الله أُسلمُ أو أُقاتلُ قال «**أَسْلِمْ ثم قَاتِلْ**» فأسلمَ فقاتلَ فَقُتِلَ، فقال رسولُ الله ﷺ «**عمل قليلًا وأجر كثيرًا**» أي لأنه نال الشهادة بعد أن هدم الإسلام كل ذنب قدمه فالفضل للإسلام لأنه لو لم يسلم لم ينفعه أي عمل يعمله. وهذا الرجل كان التحق بالمجاهدين من أجل أن قومه الذين هم مسلمون خرجوا من غير أن يسلم ثم أَلْهَمَهُ الله أن يسأل الرسول فسأل فأرشده الرسول ﷺ إلى أن يسلم ثم يقاتل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب ذكر التوبة، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٤٧١)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٥٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٠) «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب عمل صالح قبل القتال.

خاتمة الخاتمة

لِيُفَكّرِ العاقل في قول الله تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[١] فإن من فَكَّرَ في ذلك علم أن كل ما يتكلم به في الجِدّ أو الهزل أو في حال الرضا أو الغضب يسجله الملكان، فهل يَسُرُّ العاقلَ أنْ يَرَى في كتابه حين يعرض عليه في القيامة هذه الكلمات الخبيثة بل يسوؤه ذلك ويحزنه حين لا ينفع الندم فليعتنِ بحفظ لسانه من الكلام بما يسوؤه إذا عرض عليه في الآخرة.

قال رسول الله ﷺ «**خصلتان ما إن تجمل الخلائق بمثلهما حسن الخلق وطول الصمت**» رواه عبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي الدنيا القرشي في كتاب الصمت[٢].

انتهى الكتاب

وسبحان الله والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الأمين

وءاله وأصحابه الطيبين.

---

(١) سورة ق/الآية (١٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت بنحوه (ص/٣١٣).

فهرس أسماء المصادر

- **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، للبوصيري، دار الوطن - الرياض.
- **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**، للزبيدي، دار الفكر - بيروت.
- **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، لابن بلبان، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الأحكام الشرعية الكبرى**، لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي، مكتبة الرشد - الرياض.
- **إحياء علوم الدين**، للغزالي، دار الفكر - بيروت.
- **الأذكار من كلام سيد الأبرار**، للنووي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.
- **الإرشاد**، لابن المقرئ، مطبعة البابي الحلبي - القاهرة.
- **الإرشاد في معرفة علماء البلاد**، للخليلي، مكتبة الرشد - الرياض.
- **الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار**، لابن عبد البر - القاهرة.
- **الأسماء والصفات**، للبيهقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **أصول الدين**، لأبي منصور التميمي، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**، لأبي بكر بن محمد شطا، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **أعلام النبوة**، للماوردي، دار ومكتبة الهلال - بيروت.
- **الأمالي**، للحافظ العراقي، المكتبة الظاهرية - دمشق.
- **إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل**، لابن جماعة، دار السلام - القاهرة.
- **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**، للبزار، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.
- **البحر المحيط**، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **البداية والنهاية**، لابن كثير، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية - مصر.
- **تاريخ دمشق**، لابن عساكر، دار الفكر - بيروت.

- **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، لابن فرحون، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، لابن عساكر، دار الفكر - بيروت.
- **تدريب الراوي شرح تقريب النواوي**، للسيوطي، دار الفكر - بيروت.
- **تشنيف المسامع**، بدر الدين الزركشي، مكتبة قرطبة - القاهرة.
- **تفسير الأسماء والصفات**، لأبي منصور البغدادي، المتحف البريطاني - لندن.
- **التفسير الفريد**، لعبد الهادي الباني، مطبعة الباني - دمشق.
- **تهذيب الآثار**، لابن جرير الطبري، دار العروبة - الكويت.
- **تهذيب الأسماء واللغات**، للنووي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **تهذيب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر - بيروت.
- **معجم تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار المعرفة - بيروت.
- **التوسل أنواعه وأحكامه**، للألباني، طبعة زهير الشاويش - بيروت.
- **جامع البيان عن تأويل ءاي القرءان**، لابن جرير الطبري، دار الفكر - بيروت.
- **حاشية تحقيق المقام للبيجوري على كفاية العوام**، للبيجوري، مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.
- **حاشية المغربي على نهاية المحتاج**، لأحمد بن عبد الرزاق المعروف بالمغربي، دار الفكر - بيروت.
- **حاشية الجمل على شرح المنهج**، لسليمان العجيلي المعروف بالجمل، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الحاوي للفتاوي**، للسيوطي، المكتبة العصرية - بيروت.
- **الحكم**، للسيد أحمد الرفاعي الكبير، مكتبة الحلواني - دمشق.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **خلق أفعال العباد**، للبخاري، دار المعارف - الرياض.
- **دفع شبه التشبيه**، لابن الجوزي، دار الإمام النووي - عمان.
- **دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك للإمام أحمد**، تقي الدين الحصني، المكتبة الأزهرية - القاهرة.
- **دلائل النبوة**، للبيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت.

- **رد المحتار على الدر المختار**، لابن عابدين، دار الفكر - بيروت.
- **رسالة البدر الرشيد في الألفاظ المكفرات**، محمد بن إسماعيل بن محمد الرشيد، مؤسسة نادر - بيروت.
- **روضة الطالبين**، للنووي، طبعة زهير الشاويش - بيروت.
- **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، لابن حجر الهيتمي، شركة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.
- **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**، للسويدي، دار إحياء العلوم - بيروت.
- **سنن ابن ماجه**، لابن ماجه القزويني، المكتبة العلمية - بيروت.
- **سنن أبي داود**، لأبي داود السجستاني، دار الجنان - بيروت.
- **سنن الترمذي**، للترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **سنن النسائي الصغرى**، للنسائي، دار المعرفة - بيروت.
- **السنن الكبرى**، للبيهقي، دار المعرفة - بيروت.
- **السنن الكبرى**، للنسائي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- **شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة**، لأبي القاسم اللالكائي، دار طيبة - الرياض.
- **شرح تائية السلوك**، لعبد المجيد الشرنوبي، المطبعة الحميدية - مصر.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد، دار المسيرة - بيروت.
- **شرح صحيح مسلم**، للنووي، دار الفكر - بيروت.
- **شرح الفقه الأكبر**، لملا علي القاري، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **شرح منتهى الإرادات**، للبهوتي، دار الفكر - بيروت.
- **شعب الإيمان**، للبيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، للقاضي عياض، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **شفاء السقام في زيارة خير الأنام**، تقي الدين السبكي، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- **صحيح البخاري**، للبخاري، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- **صحيح مسلم**، لمسلم بن الحجاج، دار الفكر - بيروت.
- **طرح التثريب في شرح التقريب**، ولي الدين العراقي، دار إحياء التراث

العربي - بيروت.
- **العقيدة الطحاوية**، لأبي جعفر الطحاوي، شركة دار المشاريع - بيروت.
- **عمل اليوم والليلة**، لابن السني، دار القِبلة للثقافة الإسلامية - جدة.
- **الفتاوى**، محمد متولي الشعراوي، دار العودة - بيروت.
- **الفتاوى**، لابن تيمية، الطبعة الأولى - الرياض.
- **فتاوى السبكي**، تقي الدين السبكي، دار المعرفة - بيروت.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت.
- **الفتح الرباني والفيض الرحماني**، لعبد الغني النابلسي، المطبعة الكاثوليكية - بيروت.
- **الفرق بين الفرق**، لأبي منصور البغدادي، دار المعرفة - بيروت.
- **فقه السنة**، سيد سابق، دار الكتاب العربي - بيروت.
- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، للمناوي، دار الفكر - بيروت.
- **القاموس المحيط**، للفيروزابادي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- **القضاء والقدر**، للبيهقي، مكتبة العبيكان - الرياض.
- **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر - بيروت.
- **المجالس في المتشابه من الآيات القرءانية**، لابن الجوزي، دار الأنصار - القاهرة.
- **مجرد مقالات الأشعري**، ابن فورك، دار المشرق - بيروت.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **مجموعة تفسير ست سور**، لابن تيمية - الهند.
- **المحصول**، لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- **المحلى**، لابن حزم الأندلسي، دار الفكر - بيروت.
- **المدخل إلى السنن الكبرى**، للبيهقي، أضواء السلف - الرياض.
- **مسائل للإمام أحمد**، لأبي داود السجستاني - بيروت.
- **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة - بيروت.
- **مسند أبي يعلى**، لأبي يعلى الموصلي، دار المأمون - دمشق.

- **مسند أحمد**، للإمام أحمد بن حنبل، دار صادر - بيروت.
- **المصاحف**، لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، للبوصيري، دار الجنان - بيروت.
- **المصباح المنير**، للفيومي، دار مكتبة لبنان - بيروت.
- **مصنف ابن أبي شيبة**، الدار السلفية - الهند.
- **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، لابن حجر العسقلاني، المطبعة العصرية - الكويت.
- **معالم التنزيل في التفسير والتأويل**، للبغوي، دار الفكر - بيروت.
- **معاني القرءان وإعرابه**، للزجاج، عالم الكتب - بيروت.
- **المعجم الأوسط**، للطبراني، دار الحديث - القاهرة.
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر - بيروت.
- **المعجم الصغير**، للطبراني، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.
- **المعجم الكبير**، للطبراني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **مناقب الشافعي**، للبيهقي، دار النصر للطباعة - القاهرة.
- **منهاج السنة النبوية**، لابن تيمية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **منح الجليل شرح مختصر خليل**، محمد عليش المالكي، دار الفكر - بيروت.
- **منهاج الطالبين وعمدة المفتين**، للنووي، دار المعرفة - بيروت.
- **المنهاج في شعب الإيمان**، للحليمي، دار الفكر - بيروت.
- **موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول**، لابن تيمية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الموطأ**، للإمام مالك، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **نقد مراتب الإجماع لابن حزم**، لابن تيمية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **النكت**، لأبي زُرعة العراقي.
- **النهاية في غريب الحديث**، لابن الأثير، المكتبة العلمية - بيروت.
- **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**، شمس الدين الرمليّ، دار الفكر - بيروت.

فهرس المواضيع